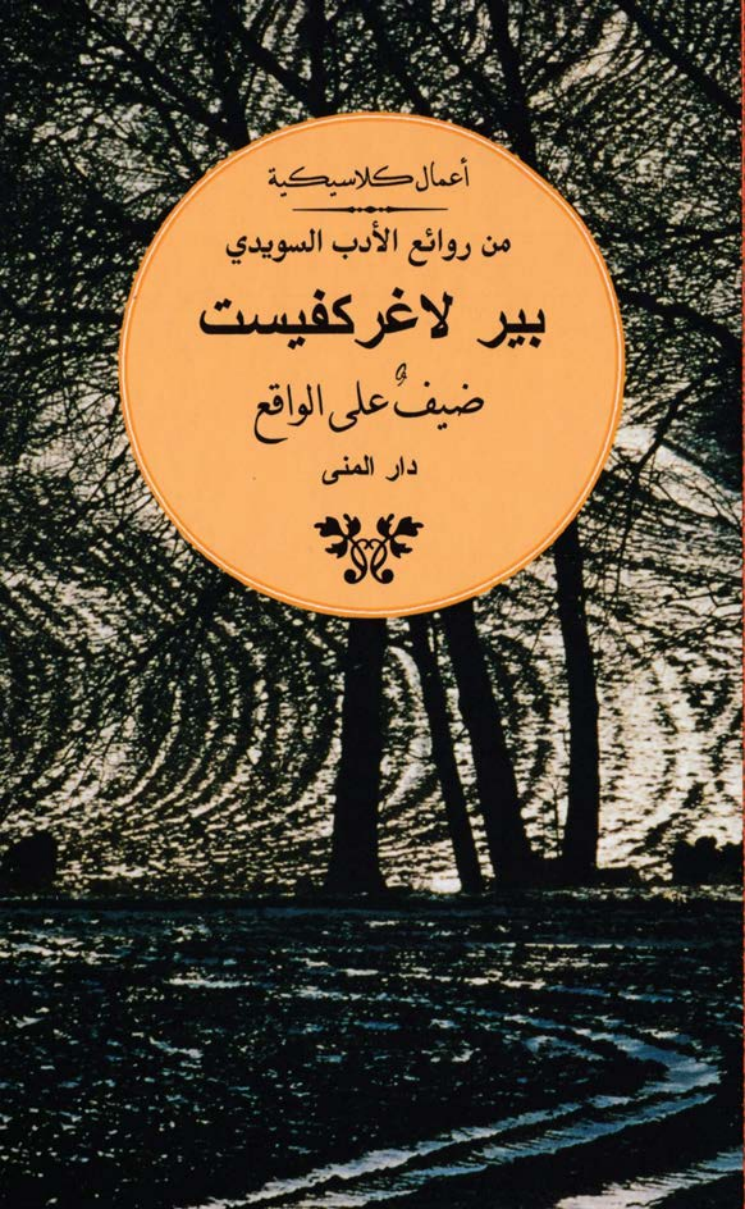

أعمال كلاسيكية

من روائع الأدب السويدي

بير لاغركفيست

ضيفٌ على الواقع

دار المنى

ضيفٌ على الواقع

٢٠١٩ ١٢ ٢٢

مكتبة
t.me/t_pdf

© Dar Al-Muna Stockholm, 2004
@ 1925 Estate of Pär Lagerkvist
First published by Albert Bonniers Publishing House
Swedish title " Gäst hos verkligheten"
Arabic text: Sukainah Ibrahiem
Arabic text © Dar Al-Muna
© cover: Marina Mattsson
© Illustrations: Sven Ljungberg
Printed in Sweden

ISBN 91 85365 11 4

Dar Al-Muna
Box 127
S 182 05 Djursholm, Sweden
Fax 0046 8 622 61 51

T

أعمال كلاسيكية

من روائع الأدب السويدي

بير لاغركفيست

ضيفٌ على الواقع

النص العربي: سكينة إبراهيم

دار المنى

"شدّ لاغركفيست الرحال متجولاً تحت متاهة من الشهب التي جذبت تفكيره، لكنها لم تشبع روحه. فبقي طيلة حياته مسكوناً بالماضي الذي كوّن شخصيته وأعماله."

ر. د سبكتور

T

T

في بلدة صغيرة من بلدات السويد – كما هو الحال في جميع البلدات الصغيرة – كان ثمّة مطعم محطّة يقع قريباً جداً من سكّة القطارات. ولولا الدخان الذي لاطم واجهته طوال الوقت ودبغها بالسواد لحافظ على طلائه الأبيض. يوحي بناؤه بمجمله أنه أُريدَ به محاكاة قلعة من قلاع الأحلام؛ قلعة ذات أُبّهة فريدة متواضعة، تزدان بتهاويل منقوشة، وتعجّ بأبراج وقباب وشرفات ضيّقة يستعصي على أحد دخولها، وكُوى يُفترض أن تشغلها جِرار الزهور، وأعداد لا تُحصى

من سَوارٍ بلا أعلام على أسطحها. لكنه في آخر المطاف لم ينتـه إلا إلى مجرد صرح ضخم، يظهر للعين وكأنه شـبه مقفـر ومُسـود بالدخان. بيد أنه ما أقفر في الواقع مطلقاً، بل وهناك شـيء بـهيج اكتنفه دائماً. إذ لطالما صدحت أنغام الموسيقى من حديقته الخلفية في المساء، وقصده المسافرون باستمرار لاحتساء الجعة، أو أتوه ليـأكلوا خلال مواعيد القطارات. ويمكن القول إنه بدا غالباً كقلعـة كُرِّسـت لأغراض أخرى، أو قلعة استُهلكت بسبب العربدة التي تواصلت فيـها بتوازن واطّراد، بدون بداية ولا نهاية أو بلوغ ذروة ما.

كانت بسط الفلّين في صالة المطعم متهرّئة، وأرائكـها المخمليـة غائرة المقاعد ولمّاعة من كثرة الجلوس عليـها. أمـا الأرض فـي المقهى الشعبي التابع للمطعم فوعِرة وذات عُقد ناتئـة، والكراسـي مخلخلة ومخلّعة. إلا أن ذلك لم يهمّ كثيراً. لم يشكّل أمـراً يسـتدعي القلق. فقد استمرّ توافد الضيوف الذين لا يلبثون أن يرحلوا في جميع الأحوال. ولم يصدّهم علمهم أنهم لم يُدعوا إلى إيـوان فـاخر عـن القعود قليلاً من الزمان، يأكلون ويشربون بينما القطـارات تحـوّل مساراتها على السكّة بانتظارهم، ثم يغـادرون إلـى وجهتـهم مـع انطلاق رنين جرس الرصيف.

لا، ما هدأ ذلك المكان لحظةً، وما خلا يوماً من الناس المستعجلين دوماً في الذهاب إلى مكان آخر. لكن القلعة بكلّ أبراجها وقبابها وسواري أعلامها وشرفاتها وكواها الفارغة، لم تفقد قطّ أثير الحكايات الخرافية الغامض الذي يحيط بها. وما انفكّت تستقطب الناس إليها كما لو أنهم ينشدون حفلة أنس فيها.

في الطابق العلوي من ذلك المبنى أُعِدّت شقّة للسكن. وهناك عاشت عائلة كثيرة الأطفال. ولعل شخصاً ما فكّر سابقاً في تقسيم الطابق إلى غرف استضافة يمكن المسافرين قضاءُ الليل فيها، لأن المساحة في رواقه الطويل الموحش تتسع للعديد منها. لكن شيئاً من هذا لم يحدث. ولم يتمّ تجهيزه بأكثر من دار بغرفتين ومطبخ، سكنتها تلك العائلة منذ سنوات وسنوات. وفي بادئ الأمر، عندما لم يشغلها سوى العريسيْن، بدت أكبر مما يحتاجان. لكن الأطفال ما لبثوا أن ولدوا وكبروا، وجاء مزيد ومزيد منهم. فأضحت الشقّة صغيرة جداً عليهم. إلا أنهم لم يشغلوا بالهم بهذا الأمر، فذاك بيتهم، وأشياء كهذه، حسب نهجهم في التفكير، لا يمكن تغييرها.

كانت غرفتا الشقّة خانقتين شحيحتي الضوء. في كلٍّ منهما ثلاث نوافذ ضيّقة ومرتفعة عالياً تجاه السقف. صُمِّمت كذلك لتلفت الأنظار

من الخارج. الأثاث بمجمله عتيق وغير متقن الصنع، ومن الواضح أنه لم يُجلب من المدينة، بل ومن الممكن تحسّس تعرّجات خشبه أسفل طبقة طلاء السرير البُنّي الضخم أو الأرائك ذات التفرّعات؛ تلك الأرائك التي اضطجع عليها الأطفال، والتي غطّت حيّزا واسعاً من الأرض كلما فُتِحت في المساء. وهذا في الواقع جلّ ما احتوته غرفة النوم. أما الغرفة الأخرى فشغلتها طاولة كبيرة مستديرة عليها مفرش محبوك؛ هناك درجوا على تناول وجبات الأحد، وما عدا ذلك من أيام في المطبخ. على أحد جدرانها رسم للمصلح الديني لوثر، وعلى جدار آخر لوحة ذات إطار زجاجي، طُرّزت فيها الأبجدية على قماش القنّب بكثير من الزخارف والنقوش. وفوق منضدة للكتابة رفّ صغير عليه كتاب مقدّس قديم متآكل، ومجموعة من منشورات المواعظ، وإنجيلان جديدان مغلّفان بورق أُلصِق من الداخل بشمع الأختام، أُعطِيا للبنتين الكبيرتين في مراسم العماد. إضافة إلى ذلك، احتوت الشقّة على بُسط يدوية الصنع متعدّدة الألوان، حجبت معظم الأرض، وكتمت وقع أقدام الجميع.

ذاك تقريباً ما بدا عليه ذلك البيت؛ بيت عمّه السكون أغلب الوقت، على الرغم من كثرة قاطنيه. وفيه أَلِفَ الأطفال الأصغر سنّاً

شغل مواضع معينة. فقد تميّزت نوافذه بوجود أجنحة مائلة السطح أسفل منها. وتلك هي الميادين التي درجوا أن يقبعوا فيها محدودبين، كأنهم أفراخ طيور تُطلّ بحذر. كلّ على كرسيّه الخاصّ به. لا.. ليس كرسيّه الخاصّ في الحقيقة، إنما الكرسي الذي آل إليه من أحد الإخوة الكبار بعد أن ما عاد يحتاجه. ومع أن حصول أيّ طفل على كرسي يعتبر من الأمور المُتعارف عليها، حصل عليها هؤلاء الأطفال بالذات ليتسنّى لهم الاعتدال أمام النوافذ، والتطلّع إلى الخارج الذي يضجّ بالحياة؛ قطارات تجيء وتروح على الدوام، وبين فينة وفينة تحوّل وجهتها من خطّ لآخر. ومحرّكات تصفر، وتدفع العربات المفصولة صوب المحطّة وعمّال التحويل يهرولون قربها ويلوّحون بأذرعهم. وإن حدث أحياناً وبدأت الريح في الهبوب تجاه البيت، وأخذ الدخان يجتاح النوافذ، تهافتوا على إغلاقها إذا وجدوها مشرعة. عندئذ، يمكن أن يشعر المرء، وقد غدت قعقعة الخارج أشبه برجعِ ناءٍ، بمدى الصمت الذي يلفّ البيت. بيد أنه في الوقت نفسه يستمرّ في رؤية الأشياء كالسابق؛ القطارات التي مكثت فترة عند الرصيف، ثم انطلقت واختفت نهائياً مع الصفيحة البيضاء على عربتها الأخيرة. المحرّكات التي وُصِلت وفُصلت كالمعتاد.

ونسيج السخام الرقيق على قضبان النوافذ الخشبية. ذاك الذي دأبت الأمّ على مسحه، وعاد باستمرار.

كان السكون في ذلك البيت من نوع لا يوجد كثيراً في العالم. اعتاد الأب أن يأتيه لتناول وجبات الطعام، وأتاه أحياناً ما بين الوجبات أيضاً، فقد عاشوا هناك لأنه يعمل في المحطة. أما الأمّ فلازمته طوال الوقت وتولّت شؤونه كلها. وهي شؤون ما انتهت قطّ، ودائماً منعها شيء ينبغي إنجازه من الخروج. تلك الأمّ التي اتسمت بطلعة نورانية، وعينين صافيتين رماديتي الزرقة، وشعر ناعم خفيف غالباً ما فرقته في الوسط. ولا شكّ أن نورانية الطلعة لدى الناس تتفاوت في درجاتها، لكن ما ميّزها حقاً أنها من أولئك الأشخاص الذين لم تقتصر نورانيتهم على الظاهر فقط. فالمرء يشعر أنها وُجدت من أجلها، وستحيا من أجلها أيضاً، ولا شيء غير هذا يمكن أن يؤازرها، أن يمدّها بالدعم. إنّ مثل أولئك الأشخاص يبدون هشّين سريعي العطب، كما لو أن تدميرهم لا يتطلب جهداً. بل ومن المحتمل إذا بطشت بالعالم يد قاسية قهّارة أن يُبادوا ويندثروا ليصحو العالم على إثر ذلك من حلم لطيف جميل ولا يبصر إلا الواقع

٥٤١

T

الأقسى فقط. لكن أولئك الأشخاص أعينهم يمتلكون حسّاً خفياً بالأمان والحصانة، وكأنهم متيقّنون تماماً من أنهم لن يُبادوا، أنهم سيظلّون موجودين إلى الأبد، وأن مُصاباً لن يلحق بهم. يجوبون الأرض لا كمجرّد ظلال باهتة، إنما ككائنات أساسية بدون أيّ موجب يستدعي منها الجزع. هم أشبه بأفراد ينتمون إلى سلالة عريقة تغلّبت على تقلبات العصور منذ بداية الدهر. وبرغم عوامل التغيير والدمار، ومع أن إفناءهم أسهل من إفناء أي أحد آخر، حظوا بالحماية المطلقة، واحتفظوا ببقائهم، بل سيستمرّون في الاحتفاظ به بقدر ما تتحمّل الحياة. والعالم، العالم لن يصحو أبداً صحوة حقيقية من حلمه.

نعم، كانت الأمّ واحدة منهم. ليس فيها سوى ذلك ما هو غير واقعي أو استثنائي. شُغلت دوماً بالعمل في المطبخ أو في إحدى الغرفتين. دردشت مع الأطفال، غسلت الأواني، اهتمّت بالغسيل والكيّ، إنما بدون أن يتميّز أيّ شيء بخصوصية ما. وعندما لم تجد لديها ما يتطلّب الاهتمام الفوري، التفتت إلى رتق الجوارب أو خياطة الملابس.

بدت طلقة المُحيّا عموماً أثناء استغراقها في العمل. وكثيراً ما راقها أن يشرع الأطفال الأكبر سناً في تبادل المزاح حتى تذهب وتستمع

إليهم. ولكن إذا ما قعدت لترتاح، فإنها سرعان ما تطـوّق ركبتيـها بيديها وتتنهّد بعمق وتنأى عنهم بعيداً. وفي المساء تركن إلى قـراءة الكتاب المقدّس بصوت هامس لا يتجاوزها. حينذاك، وحيـث هـي على مقربة من السراج، وشفاهها المنمنمة الدقيقة ترتعـش، تلـوح شاحبة جداً وشبه عاجزة.

ما عدا ذلك ليس هناك شيء آخر خصوصيّ فيها. لا شيء. وهـذا يُعتبر كافياً بالنسبة إلى امرأة مثلها.

في المساء يأوي الأب إلى البيت ككلّ يوم. ولا يكاد يفعل حتـى يبادر إلى خلع سترة العمل، ثم ينفخ مصبـاح الإشـارات، يجفّفـه بنفايات القطن، ويضعه خارجاً في الرواق لأنه يُوقد بزيت القطارات ويبعث رائحة كريهة عند إطفائه. بعدئذٍ، ينهمك هُنيهة فـي تدويـن أرقام العربات، ويخبرهم أيها سيتمّ في الغد تحميلها وأيها سـتُفرغ. يتطرّق إلى ذكر أمر وغيره يتعلّق بالقطارات التي أشـرف عليـها. وعندما ينتهون من الأكل يتناول الكتاب المقدّس ويسـتقرّ. وحالمـا ينصرف والأمّ إلى القراءة فيه، يمتنع الجميع عن الكلام، ويغدو الجوّ غريباً وثقيلاً. وإذ يخيّم الصمت على الأطفـال ويلـتزمون جـانب الهدوء، لا تنفكّ تتناهى إليهم من المقهى الشعبي تحتهم جلبة النـاس

المنتشين وهرجهم. لكن ذلك لم يَعنهم يوماً، لأنهم اعتبروه شيئاً مختلفاً عن نهج بيتهم ودخيلاً عليه. وما بين فترة وفترة، حينما يصل قطار متأخر، يقوم الأب إلى النافذة، يتمطّى، ينظر خارجاً والكتاب المقدّس في يده، ثم يعود إلى القعود ليكمل القراءة.

غالباً ما كان مسموحاً للأطفال بالخروج قليلاً قبل حلول موعد النوم. وكما يفعلون دائما، يعمدون إلى تلمّس طريقهم خلال الرواق المعتم كقطيع من الجرذان، ويرفعون أصواتهم شيئاً فشيئاً مع هبوطهم السلالم، ثم يطلّون على الدنيا التي لا يزال مساؤها الربيعي منوّراً، وعبقاً برائحة كالتي تعقب المطر. ينسلّون عبر بوابة صغيرة تقودهم من الفناء المسوّر إلى الحديقة. هناك، تبصّ عليهم القناديل المتوهّجة من أقصى الحديقة. ويبدأ وقع الموسيقى بالاتّضاح؛ آلات من جميع الأنواع تقرع، تنفخ، تدوّي.. الشبّابات ثاقبة وحادة.. والأبواق جشّة. يستمرّون في التقدّم. يحثّون السير تحت الأشجار، يشقّون طريقهم بين الجذوع، ويتسلّلون إلى أقرب بقعة يجرؤون على بلوغها؛ بقعة تنتصب فيها عدّة أشجار تنّوب معمّرة، ذات أغصان متدلّية على الأرض. يواصلون المشي في الظلمة الحالكة بحذر، لئلا تتلطّخ ثيابهم بالصمغ. ويشرفون أخيراً على حيّز مكشوف يُشعّ

بالنور، ويغصّ بأناسٍ قعدوا يسمعون الموسيقى. المتـــأنقون منـــهم يضعون بطانيات حمراء علـــى أرجلـــهم لاتّقـــاء بـــرودة المســـاء. والنادلات يتنقّلن بين الجميع، ويسكبن لهم مشـــروبات مدهشـــة، لا يظهر منهن سوى بلوزاتهن البيضاء فوق مستوى الطاولات، كما لـــو أنهن يمام عائم. وفي سرادق يشبه نصف بيـــت بســـقفٍ ذي ســـماء ذهبية النجوم، تعزف الفرقة المحلية ذات البزّات الزاهيـــة. حينئـــذٍ، يقف الأطفال بأنفاس محبوسة وعيون برّاقة، ويتسمّرون مـــأخوذين بالمشهد الذي يرونه رائعاً وجميلاً في كلّ مرّة، على الرغم من أنـــهم كبروا معه. آلات موسيقية تلمع، وألحان تهدر فـــي قلـــب المســـاء المسالم، وقرع الصنوج الكبيرة يتقاطر كلما أشرفت مقطوعة ما على الانتهاء. وعندما يهبط الليل، يرجعون إلى البيت، يخلدون إلى النـــوم، ويحلمون بأشياء غريبة تستعصي على فهمهم. لكـــن، حالمـــا يطـــلّ عليهم الصباح التالي، تأتيهم عبر باب المطبـــخ مِمخضـــة الصفيـــح القديمة الملآنة حليباً طازجاً. يحملها إليهم القطار الذي يصـــل فـــي الساعة السابعة والربع، حيث تُركن فوق المحرّك قـــرب الســـائق. فيشربون ما يرويهم من الحليب المحتفظ بدفئـــه، والفـــائح برائحـــة الضروع. وتُطلعهم وُريقة الملاحظات المُندّاة المحشـــورة بالغطـــاء

على أخبار مزروعات الموسم والأبقار، وما طرأ مـــن أحـــداث. أو بالأحرى على عدم وجود ما يستحقّ الذكـــر، وأن الجميـــع بخـــير، والأمور تسير كما ينبغي.

إنها من المزرعة في الريف؛ المكان الذي ينتمون إليـــه، المكـــان الذي جاؤوا منه.

خلال النهار، يخرج الأطفال إلى الحديقة التي لطالما أحبّوا الشـــرود فيها بدون تحفّظ. حديقة تشبه باتساعها غابة متكاملـــة، إنمـــا غابـــة منسّقة ومشذّبة. لكنها على أيّ حال لم تخل مـــن ركـــن فوضـــوي، طلعت فيه الأشجار كيفما اتفق، وتُرك العشب لينمو كما يحلـــو لـــه. وذاك بالتحديد هو الموضع الذي ألِفوا اللجوء إليه. إلا أنهم كثيراً مـــا

سرحوا قليلاً هنا، وهناك، وفي كلّ مكان؛ عالياً عند الدعائم البيضاء على الأكمة المجاورة لساحة المحطة. في الأسفل تحت عريشة تنّوب مهجورة تتراكم في وسطها صفائح سردين وشظايا زجاج مكسور. وحتى قرب قرية للنمل يبلغ ارتفاع عشبها المختلج الركبتين، وكأن النمل قد سمّدها جيداً ليخفي مساكنه عن أعين العالم. وكذلك في الجهة الأخرى، حيث تنتشر براعم الليلك على طول الطريق الذي يحدّ طرف الحديقة هناك. بيد أن ما درجوا على فعله لا يُعدّ لعباً خالصاً، ولا مجرد تسكّع. بل هو شيء بين الاثنين تقريباً. فقد يقفزون مرّة أو مرّتين، أو يتبعون بعضهم بعضاً وسط الأجمات، ثم يسكتون وينصتون إلى شقشقة العصافير. وهذا ما فعلوه في ذلك اليوم الرائع الذي خرجوا خلاله للهو في الحديقة كعادتهم. كان يوماً أجمل من أن يستطيع المرء التجوال في الخلاء من غير أن يشعر بالرضا يغمره، كما شعروا تماماً. ففي السماء اضطجعت بضع قصاصات غمام باطمئنان. وعلى الأرض انسابت أشعة الشمس طليقة وتعهدت الأشياء الخضراء بالرعاية. والحديقة التي ترامت تحت تصرّفهم وحدهم، خلت إلا من عجوز يكنس الدروب في موضع ما. لكن وجوده لم يضايقهم، لأنهم يعرفونه جيداً، ولأنه على

مسافة أبعد من أن تزعجهم.

أتراهم يستطيعون البحث عن تويجيات الحظّ بين أزهار الليلك؟! تساءلوا في ما بينهم.. إيه، لمه لا! استقرّ بهم الرأي.. ولم تكد إحدى البنات تجذب غصناً وتشرع في تفتيشه، حتى وجدت عديداً من التويجيات؛ من ذوات الثماني بتلات والعشر أيضاً. تُدعى هذه البنت ساين، وقد اشتهرت بعثورها دائماً على تلك التويجيات، وسيأتي ذكر المزيد عنها في ما بعد. وعندما وقعت على واحدة كبيرة حقاً تملّكها الحرج، لمجرد أن ذلك لا يحدث إلا معها. وكما تفعل دائماً، هتفت يه.. لا.. لأنها لا تعلم ما إذا نجح إخوتها أيضاً في الاهتداء إلى شيء. ثم صفّقت وانفجرت ضاحكة وأكلت التويجيات؛ فهذا ما ينبغي أن يفعله المرء إذا أراد لها أن تؤتي أيّ مفعول. انصرفوا بعدئذٍ إلى اللعب. خبط أكبر الصبيان واحدة من البنات على ظهرها، ثم ولّى هارباً، وكَمنَ ينتظر وراء شجرة.

وبذلك بدأت لعبة الغمّيضة.

انطلقوا وسط أشجار الكستناء والقيقب، وما بين البيلسان في المواضع التي لم تُزرع بعد ولا ضَير من وطئها. شمل هذا الحديقة بأكملها؛ ركضوا هنا، وهناك، وهنالك، لاهثين مُخضّلين بالعرق.

ربضوا برهة على غصن متدلٍ متشعّب، ثم واصلوا الجري. وما بين حين وآخر، توقّفت البنات واستسلمن. وما إن التقطن أنفاسهن حتى اندفعن ثانية.

في خضم ذلك كلّه أشرفوا على المقهى. وإذ لم يستطيعوا التقدّم أكثر، تسمّروا مقطوعي الأنفاس عند طرف الدرب المؤدي إليه. وقفوا وأمعنوا النظر، وعُلّقت اللعبة تماماً. استغربوا الخواء والاختلاف الذي بدا عليه كلّ شيء هناك في وضح النهار؛ فالطاولات لبدت جرداء قذرة، لزجة بالجعة والمشروبات التي جفّت وخمّت في الشمس، وعلى الأرض تحتها تناثرت أعداد لا تحصى من أعواد الثقاب وأعقاب السيجار الممضوغة، وقرب إحداها تخلّفت آثار قيء. أما سرادق الموسيقى فانتصب فاغر الفم مقفراً ومهجوراً، وزُجّت حاملات النوتات معاً كهياكل عظمية محشورة في الزاوية، وتداعت أجزاء من السماء المرصّعة بالنجوم.

لم يروا هرجاً ولا احتفالاً. لا، ففي النهار لا أحد اهتمّ بمثل هذه الأمور.

عادوا إلى اللهو ثانية. أكملوا اللعبة من حيث انقطعت. ومَن تلقّى الخبطة طارد البقية الذين تدافعوا أمامه كقطيع من الغنم يستبق

بحرّية وينتشر في الأحراش. تسلّخت صيحات الفرَق عن البنات من وراء الأشجار مثل استغاثات عاجزة. ودوّم القطيع الشارد في الحديقة كلها، من أحد أطرافها إلى الآخر.

دوّم.. ونعب تحت الشمس المتّقدة.

لكن آندرز، أصغرهم، لم يشاركهم اللعب. وهذا لم يَعنِه كثيراً، لأنه في جميع الأحوال لا يستطيع مجاراتهم في سرعة الركض. ولذلك بقي واقفاً مكانه ينظر بذهول إلى منطقة المقهى المقفرة تحته، حيث تجلّى له كلّ شيء في المساء على نحو بديع الجمال. وحيث هو في تلك اللحظة أقرب إلى العدم. قذر وكئيب فحسب. عجز عن استيعاب الأمر، فقد خُيّل إليه أن مشهد المساء حقيقي؛ السماء والنجوم، الأنوار المتدفّقة، الموسيقيون الذين بدوا كالملائكة، والموسيقى نفسها بعذوبتها العجيبة التي لم يجرؤ في بعض اللحظات على الإمعان في الإصغاء إليها.

تذكّر المشهد كلّه بوضوح...

مشهد لم يبق منه في الوقت الحاضر شيء. لا شيء قابل للتمييز. لم يفهم كيف يمكن لروعة كتلك أن تتلاشى وتخلّف وراءها الخواء والوحشة فقط!

تملّكه جزع. استحكم به ضيق أعجز رئتيه عن التنفّس بحرية. بل.. أترى الرعدة سرت فيه وهو واقف هناك تحت الشمس؟!

ارتقى الدرب كاسف البال واجتلى المنحدر. سمع صيحات إخوته تتردّد في أرجاء الحديقة، لكنه لم يرغب في الذهاب إليهم. تسكّع وحيداً بدون هدف، ثم قعد أرضاً عند ممرّ عريض يقطع الحديقة في وسطها. ممرّ تحجب تربته طبقة حصى عميقة، خلافاً للممرّات الأخرى التي لم يتوافر من الحصى ما يكفي لتغطية تربتها. في البداية صبّ رملاً فوق حذائه وسوّاه، وعندما نحّى قدمه حصل على قبو صغير.. لتخزين البطاطس ربما.. أو.. أو أيّ شيء آخر يصلح للتخزين. شكّل العديد من تلك الأقبية، وفعل ذلك بسرعة لتمرّسه فيها. ثم قرّر التحوّل إلى تهيئة حفرة كبيرة حقيقية. أعمل في الأرض أصابعه، وأوغل أعمق فأعمق حتى وصل إلى الرمل النالعم الرطب، وأصبحت الحفرة أضيق من أن تتسع لما هو أكبر من يده. بلغ من الاستغراق ما جعله لا يسمع ولا يرى شيئاً. ولم يلاحظ مدير المطعم الذي خرج يتمشّى قريباً منه. وما تنبّه له إلا عندما وقف أمامه مباشرة، وكرشه المستديرة تُظلّل ما صنعته يداه!

كان مدير المطعم في الحقيقة إنساناً عطوفاً، لكن الأطفال نظروا

إليه دائماً بعين الرهبة، لاعتقادهم أنه يمتلك كلّ شيء في الجزء الذي شغلوه من الدنيا. بيد أنه في الواقع ما امتلك الكثير؛ ليس أكثر من عقد إيجار لمدة عشر سنوات لم ينفد بعد. وإذ وقف أمام آندرز، هزّ رأسه معترضاً وتحسّس سلسلة ساعته التي تثنّت كقوس عريض عبر صِداره.

"لا..لا.. هذا لا ينفع،" قال لآندرز. "أترى.. عندما يحفر الصغار الأرض فهذا يعني أن شخصاً في البيت سيموت." أردف ليضفي على كلامه شيئاً من التودّد. ولو أنه أراد التعبير عما جال في خلده للأطفال الآخرين، لفعل هذا بدون مواربة. لكنه اعتقد أن عليه الإيضاح بطريقة ما لذلك الطفل الذي ما زال صغيراً جداً.

قفز آندرز وقد تقبّضت قسمات وجهه وامتقع فزعاً. نظر إلى الحفرة شزراً، ثم ارتمى على ركبتين مصطكتين وسارع إلى ردمها.

تعجّب مدير المطعم من تصرّفه، لكنه لم يعلّق، بل تناول كيس كراميل من جيبه وضيّفه. فقد أحبّ الأطفال، وفي أغلب الأحيان حمل معه شيئاً لهم.

وبما أن الكراميل هي دائماً كراميل، أخذ آندرز بيد مرتجفة قطعة كبيرة دبقة عُرضت عليه. وما كاد يومئ شاكراً حتى أطلق ساقيه للريح، خلال الأجمات وفوق المرج ثم قلب الحديقة.

مَن؟ مَن سيموت؟

أمّه ربما؟ أو ربما هو؟ لا، هو ما زال طريّ العود ولا يُعقل أن يموت من فوره.. ولكن ماذا عن أمّه؟ لقد بدت شاحبة، وسمعها عدّة مرات تقول إنها متعبة. طبعاً، استبعد حدوث هذا لإحدى النادلات،

فكلهن صحيحات الأبدان متورّدات الوجنات. لا.. لا شكّ أنها الأمّ.. ولكن.. ماذا لو أنها الأمّ حقاً!

خرّ أرضاً وسط العشب. تحامل على نفسه، نهض وتابع الجري. لا، إنه أبوه! نعم أبوه. فهو يساعد في تحويل مسارات القطارات، وسوف يدهسه أحدها! نعم إنه الأب! لقد وضح له الأمر أخيراً!

جرى قاصداً إخوته. فَقَدَ جرأته على البقاء وحده. أصرّ على العثور عليهم! لم يتمكّن من سماعهم في أيّ مكان. بلى، آنس حسّهم عند الدعائم البيضاء.

جاهد صاعداً المنحدر، وصل شاحباً لاهثاً، واندفع مباشرة إلى ذراعي ساين.

لم يلاحظ الآخرون شيئاً غير طبيعي فيه، ليس أكثر من أنه بذل جهداً كبيراً ليلحق بهم، لكن ساين استشفّت اضطرابه فوراً، فحضنته وحملته عالياً.

"ما خطْبك؟" ساءلته بدهشة.

عجز عن إعطائها أيّ جواب. فقد خمّن أن بعض الأمور لا يمكن البوح بها، كما أن البوح بها لا يساعد، وربما يزيدها سوءاً. وعلى المرء أن يجالد ليتحمّلها وحده ما وسعه التحمّل.

اكتفى بإحكام تشبّثه بها.

في تلك الأثناء، تسلّق إخوته الدعائم وعاينوا ساحة السكّة أسفل منهم، غير عابئين بالمنحسر الحادّ تحتهم، حيث نُسف قسم من طرف التلّ لتهيئة مساحة لمسارات جديدة.

"هاااا مرحبا،" صاح هيلج، أحد الإخوة الكبار، "انظروا، ذاك هو أبي!"

وبالتأكيد، لا بدّ أن يراه الجميع بينما وقف على عتبة المحرّك، وقد تعلّق بإحدى يديه، وأخذ يلوّح لهم بالأخرى.

رفعت ساين الصغير آندرز عالياً، رفعته بقدر ما استطاعت. وفي تلك اللحظة قفز الأب وجرى تحت الحواجز والعربات تتحرّك. أحدّ آندرز النظر مهتاجاً. ما عادوا يستطيعون رؤيته. مرّ الوقت. شعرت ساين بأصابع أخيها تضغط طرف حنجرتها. أخيراً، ظهر ثانية، أشار إلى السائق، وبدأت العربات تكرّ نحو مساراتها الجانبية.

أنزلت ساين أخاها أرضاً، ولاحظت أنه يرتعش من رأسه إلى أخمص قدميه.

"يجب أن تتوقّف العربات هناك،" قال الشقيق الأكبر الذي أفرط في التدلّي من حافة السياج. "لأنّ جوهانسون يريد أن يُحمّل عليها

الألواح الخشبية عصر اليوم."

وبينما شرع في الهبوط أضاف:

"والآن، ماذا سنفعل؟"

وقفوا يتشاورون حيناً.

"سأعود إلى البيت لأساعد أمي،" أعلنت ساين في النهاية وهي تمسك يد آندرز لتصطحبه معها.

وبذلك تركا الآخرين وسلكا طريق المرج المنحدر.

مرّا قرب صالة البولينغ ذات الأرضية الخشبية التي قعقعت كـالرعد. ومنها خرج رجل سمين بقميص طويل الأكمام، ووقف يتنفّس صُعُـداً ويده تقبض على كوب ماء.

"مرحباً يا أطفال،" قال للصغيرين، "يا له من جوّ."

تابع آندرز وشقيقته المشي صامتيْن، كما لو أن الحيلة أعجزتـهما عن التحدّث بأيّ شيء. وحارت ساين في معرفة السبب لما وجـدت أن يده ما زالت ترتعش. وعندما وصلا إلى الأشجار، ليـس ببعيـد كثيراً عن البوابة المؤدية إلى الساحة، توقّفت ساين.

"خُذ تويجية الحظّ هذه يا آندرز،" قالت ويدها تبحـث عـن واحـدة خبأتها في جيب مريلتها. وحينما رأت أنها قد اتّسخت قليلاً وعلق بها

بعض فتات الكعك، نفخت عليها إلى أن عادت نظيفة مـــرة أخـــرى وتفتّحت.

"لا، كُليها أنت،" قال.

"لا تهتم، خُذها. أعثر دائماً على الكثير منها."

إذ ذاك، حشرها في فمه، ومضغها بينما واصل طريقه إلـــى جـــانب ساين صامتاً.

كان هناك شيء استثنائي يتعلّق بالأمّ وساين. ويمكن المرءَ أن يلاحظه فوراً إذا راقبهما في أعمال المنزل التي زاولتاها كلّ يوم. شيء أقرب إلى حياة خاصّة بهما مختلفة عن تلك التي عاشها الآخرون. أرفع منزلة ربما. ولهذا اعتبرهما بقية أهل البيت القلبَ الذي عليهم تتبّعه ليتأكدوا من أنهم أحياء. وللمرء أن يقبع ويستمع إليه في المطبخ، في الغرف الأخرى، وحيثما تنقلتا لإنجاز المهام. سواء قعدتا تقشّران البازلا في الحديقة، أو غسلتا الأوعية، أو نفضتا الغبار، أو حتى لمّعتا السكاكين في أصيل يوم سبت. ومع أن جميع مَن في العائلة ارتبطوا بأواصر مودّة وصلتهم بعضهم ببعض وفصلتهم عن العالم الخارجي، لم تبد هذه المودّة مهمة بالمقارنة مع ما ربط بين هاتين المخلوقتين. رابطٌ جعلهما كُلاّ متكاملاً، لا فرق بينهما. لا أكثر من أن إحداهما أصغر من الأخرى. ولأنها حياة وُجدت لتبقى وتستمرّ من غير أن تبلغ أي نهاية، لم تختلفا في شيء سوى أن الأولى صبيّة صغيرة، والثانية أمّ لعدّة أولاد، شاحبة

ومرهقة وفي خريف العمر. كانتا أثناء انهماكهما في العمل معاً وتحدّثهما عن شيء وآخر، ثنائياً أُحاديّ الكينونة. بيد أن هذا لم يَسِمهما بأيّ قدسية، أو جعل ما تقولانه مميزاً. لا.. ذلك لم يحدث قطّ.

كذاك اليوم على سبيل المثال وهما منكبّتان على الغسيل في المطبخ. لا شيء مميّز فيما فعلتاه.. لا شيء.. لا شيء معيّن بحدّ ذاته؛ حامتا الواحدة حول الأخرى وهما تكوّمان الملابس المعصورة، تغيّران ماء الشطف، تجلبان كيس المبيّض، أو تعلّقان الجوارب خارج النافذة لتجفّ. تطرّقتا إلى ذكر شيء طريف، فضحكتا هنيهة، ثم أمسكتا ألواح الغسيل وعادتا فوراً إلى جدّيتهما السابقة. كانت ساين ذات جسم صغير ممتلئ قنفذي الشكل أضفى عليها سيماء الحكمة والطرافة في آن. شعرها أصفر جعد كثيراً جداً، وعيناها برّاقتان. ويومذاك، وفيما هي مستغرقة في دعك الملابس لتستحثّ رغوة المياه الصابونية، بدت مخضّلة بالعرق. رأسها شبه مائل كما لو أن ذلك سيساعدها على الفرك بقوة. وجهها مضرّج بحمرة الحماسة، وشعرها مرصّع بلآلئ الرذاذ.

" ياه..لا.." يسمعها المرء تقول كاسرة الصمت على نحو مفاجئ،

"انظري لقد حلّت يا أمي!"

"ما رأيت في حياتي شيئاً مثله،" تجيب الأمّ، "عسى أن الصباغ لم.."

"آه بلى يا أمّي،" تقاطعها ساين، "لقد تلطّخت البياضات. يا ربّـــي.. ماذا سنفعل بها الآن!"

"هذا أسوأ ما يمكن أن يحدث يا عزيزتي ساين. أما استطعت إزالته؟ لا.. ؟ حسناً.. حسناً. لا شيء يعالجه سوى الغلي.."

"إيه.. إيه.. أقول دائماً إنه هذا النوع من المآزق التي نوقـــع أنفســـنا فيها.."

هذا ما درجتا على التحدّث به؛ حوارات تتعلّـق بـأمور طـرأت عليهما فجأة. وبعد ذلك، ستعودان إلـــى الانكبـــاب علـــى أحـــواض الغسيل، تشطفان وتعصران.

وفي ظهيرة يوم خلت مما يوحي للمرء أن جديداً سيطرأ، انبســـط البيت هامداً وموحشاً. لم يتخلّل سكونه إلا حسّهما وهما تكدحان على الغسيل في المطبخ، والشمس تدخله وتخرج، وتبعاً للسحب الصغـيرة في غدوّها ورواحها، تشعّ عليهما أو لا تشعّ. الأطفال في المدرســـة، أو في مكان ما خارج البيت. كلّ مشغول بأحبولته الخاصة. و..

"أين آندرز يا ترى؟" انبرت الأم تتساءل.

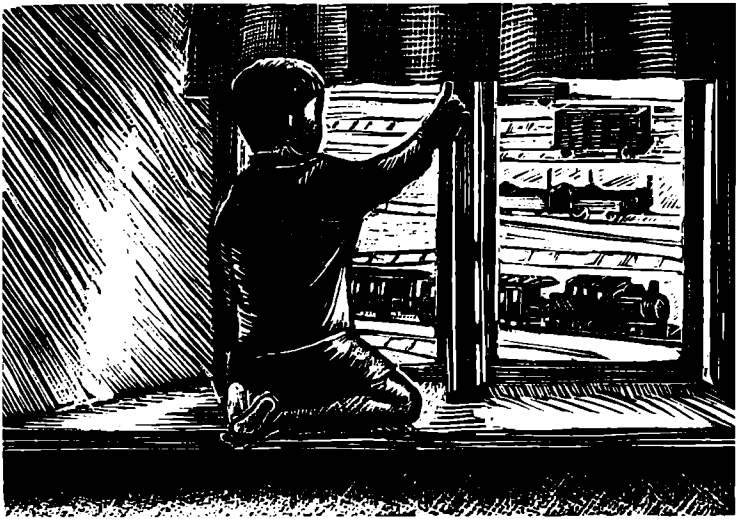

"لا شكّ أنه عند النافذة،" قالت ساين، "بما أننا لا نسمع له صوتاً." وهذا صحيح حقاً، فهناك قبع متقوقعاً عند الحافّة يـرسم على سخام الزجاج بإصبعه. ولا يكاد ينتهي من ناحية حتى ينتقل إلى أخـرى، مقتفياً السخام المنتشر رقيقاً دقيق القوام في كل مكان. لم يظهر عليه ما دلّ على أنه رأى القطارات العابرة، لكنه في جميع الأحـوال لـم يحتج إلى رؤيتها، فقد أحسّ بوجودها، كيف مرّت ومـرّت، متبدّلـة

ومتبدّلة أبداً. فقط عندما جهز أحدها للإقلاع، في أكثر المسارات ضيقاً وأقربها إلى النوافذ، تدلّى لينظر. كان ذلك القطار أصغر من القطارات الأخرى. بل وأظرف من أن يستطيع المرء مقاومة الابتسام عندما يشاهده. ومن بينها جميعاً اعتبره قطاره الخاصّ. وطفق يلوّح له وهو يشقّ طريقه بصفير حادّ ويختفي يميناً في غيضة شجر القضبان، نافثاً حلقات واهية من الدخان الأبيض فوق رؤوس الأشجار.

عاد وتفرّغ لسخام النافذة بعد رحيل القطار. ثم خالجه شعور مباغت بأن كلّ شيء حوله غريب ومقفر، وكأن الكون سها عن نفسه، نسي ماهيته. لاحظ هذا على البيوت عبر الفناء، على كلّ شيء. فكّر كيف أنه قبع هناك يرسم بينما العالم حوله يتبدّى في حالة جمود تامّ، خاوياً ومهجوراً..

لا... شعر أنه لم يعد يرغب في البقاء مكانه. أما كان من الأفضل له لو قصد الفناء وحاول العثور على شيء يسلّيه؟ ربما ذاك هو الأحسن. وربما وجد فيه نوعاً من التغيير.

نزل من على الكرسيّ واجتاز الغرف. انتهى إلى الرواق حيث الباب المؤدي إلى المطبخ. توقّف، ألصق أذنه بالباب وأنصت. سمع

الأمّ وساين تدردشان في الداخل. تناهى إليه وقع ثرثرتهما كدندنة مسالمة. لكنه لم يستطع تمييز ما تقولانه، فقد كانتا تدعكان الغسيل، ورشاش الماء يخبط الأحواض في الوقت نفسه. لا.. لا.. لم يرغب في الدخول، ولم يرغب أيضاً في البقاء واستراق السمع. آنسه صوت الأم وهي تقول "ألا ترين يا ساين أننا نستطيع الحصول على فنجان قهوة الآن؟ إننا نستحقه حتماً."

"نعم، أعتقد أننا نستحقّه."

"ضعي الإبريق على النار إذاً، وسأتولّى شطف المناشف.."

"آآآآه.." سمع ساين تهتف، "من المريح أن أقوّم ظهري.." ثم رنّت ضحكتها.. ثم بدأت الجلجلة بالتصاعد من حلقات الموقد.

انسلّ بعيداً عن وقع تلك الأصوات صوب الدرج الحالك، ومنه إلى الفناء المحاط بالمباني. لفحته سياط الشمس، لكنه لم يكترث. مضى إلى إحدى البالوعات ووقف ينظر. رأى أنها قد طفحت بغُسول الصحون لانسداد ثقوب مصفاتها بالفلّين وقشور الليمون. شاهد قربها دلواً طُرحت فيها حزمة من القرنفل الذاوي مع رواسب القهوة والرماد. دار حول مبنى الحمامات العامّة الذي تؤدي الأبواب الأربعة في أحد جوانبه إلى المراحيض. قصد ركناً منعزلاً تراكمت

فيه مجموعة من صناديق قوارير الجعة الفارغة الفائحة برائحة التفل. من هناك عبر إلى صفّ السقائف المقابلة. لكنه سلك عطفة جانبية ليتحاشى كوخاً يؤثِر تجاهل وجوده؛ كوخاً يحتلّ وسط الفناء، غير مطلي بالدهان، ولا نوافذ له. لا شيء سوى تجويف قاتم في أحد جدرانه، وإذا.. إذا أولجت يدك فيه اعترتك الرعدة لأنه ملآن بالثلج. لا.. لم يشأ البقاء هناك. اعتقد أن من الأفضل له الذهاب إلى مخازن الخشب لإلقاء نظرة عليها.

يمّم المخازن. وجد أبوابها الثلاثة مُشرعة ليتاح للحطب أن يجفّ جيداً. وخُيّل إليه إذ طوّقه عبير البتولا أنه أقحم رأسه في غابة. ومن بعيد، عند نهاية "الغابات الثلاث" لمح رجلاً مُسناً قصير القامة وقف ينشر جذوع الأشجار؛ لحيته بيضاء كثّة، شاربه مُصفرّ بالسعوط تحت أنفه، وعيناه صغيرتان ثاقبتان. وبمعزل عن هذا، لم يستطع استجلاء أيّ شيء آخر منه في الأفق.

"يومك سعيد يا صغير،" همهم العجوز عندما شاهده، "ماذا تفعل؟"

"لا شيء،" أجاب الصبي.

"إيه أكيد. هذا ما أراه.." غمغم الرجل، "أما جونسون العجوز فإنه ينشر جذوع أشجاره، وما فتئ ينشرها مذ كان في سنّ لا تتجاوز

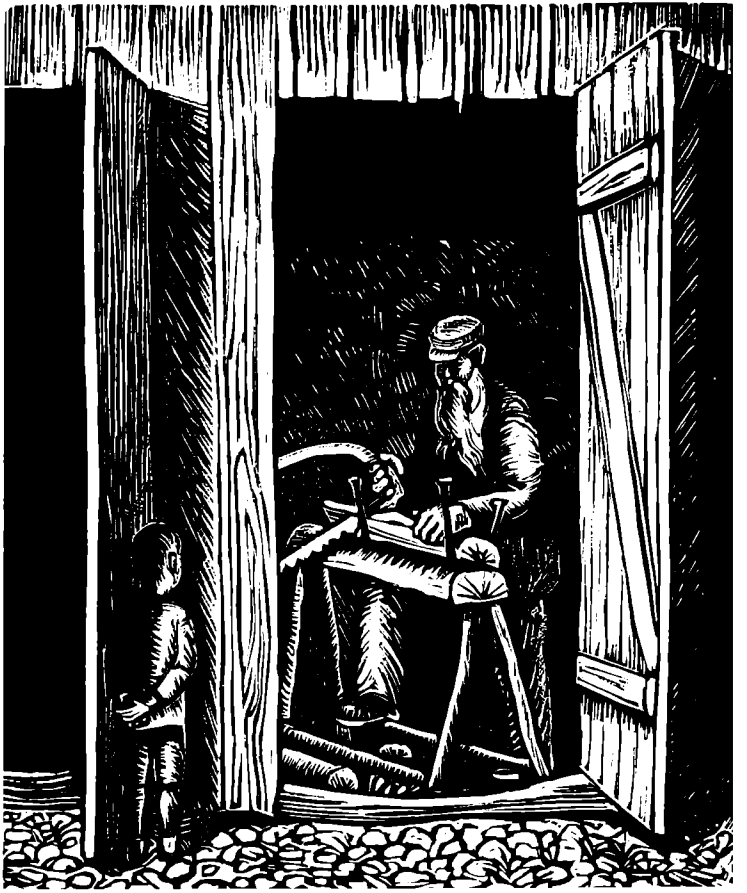

سنك.. من الصباح إلى المساء.. يوما إثر يوم، إلى أن طعن في السن. انظر كم هو عجوز الآن. وكل هذا الكدح حتى لا يموت الناس من شدة البرد. أتعرف كم يمكن أن يبلغ عدد الموتى منهم لو أن جونسون العجوز ما وقف هنا ينشر الجذوع طوال عمره؟ آلاف.. صدقني. نعم.. نعم، لولاي لمات الكثيرون منذ شتاءات وشتاءات مضت؛ أبوك وأمك وساين ومدير المطعم والنادلات الوقحات. ومع ذلك.. هل فكر أحدهم بي؟ هل جاءني شخص وشكرني لأنهم لم يموتوا؟ لا.. لا أحد. إنهم لا يعتقدون أنه شيء يستحق الشكر. ولكن، ذات يوم صاف، سيطفح الكيل بالعجوز الطيب جونسون، وسيغدو أكثر تعبا وهرما من أن يبالي بعد بالوقوف هنا ليكدح من أجلهم. حينذاك سيتجمدون حتى الموت، كلهم. ألا تظن أنهم بذلك سينالون جزاءهم؟"

اكتفى آندرز بالوقوف هناك يتفرس فيه متململا.

"إي.. نعم يا ولد، هذا ما سينتهون إليه، وأنا أؤكد لك أن الدنيا هنا فظيعة البرد لولا النار." أردف العجوز. "هه، وانظر إلى حالك!" تابع وهو يمعن النظر فيه، "ما بالك تقف هكذا حاملا هموم الدنيا على كتفيك!انطلق إلى الشمس يا ولد، احرص على أن تنال حاجتك

من الدفء في الصيف، وبعدها سنرى كيف تسير الأمور عندما يحلّ الشتاء.."

وعلى الرغم من غرابة الموقف، ندّت عنه ابتسامة عريضة.

فعل الصبي كما أشار عليه العجوز، وخطا خطوة صوب الدنيا وأجال النظر فيها. رأى أن الشمس لا تنقصها في تلك اللحظة، والعشب منبثق من بين الحصى نضراً، والهندباء بازغة ممشوقة السيقان على امتداد الميزراب حيث الشقوق بين الحجارة أخصب من غيرها، ويومه ذاك مسالم كيوم الأحد. بيد أنه تمنّى لو عرف فقط لِمَ شعر بالانقباض.. انقباض أشبه بثقل رابض على صدره. أيعاود التسلّل إلى باب المطبخ ليسترق السمع؟ فكّر.. لا، يجدر به البقاء حيث هو، فاليوم جميل، وعلى المرء أن يسرح في الخارج، وأن يبتهج على نحو ما!

ولكن، كيف يتأتى له هذا؟ كيف؟

مضى حتى حدود البوابة الكبيرة وأقحم رأسه خارجها.

طالعته تحت الشمس ساحة رملية، يليها وشيع من شجر الزعرور البرّي. وفي الأعلى سحب صيفية خاملة. لا شيء آخر سوى هذا. فضاء فحسب. فضاء بدا في المدى، كما يحدث أن يبدو أحياناً،

خاوياً تماماً.

عاد ونكس رأسه.

ربما.. ربما ليس أمامه في النهاية إلا أن يتسلّق إلى مخزن الثلج! لعله أفضل شيء يقوم به. بل إنه الأفضل. لا بل شعر أن هذا ما ينبغي أن يفعله.

رجع إلى مخزن الثلج، وجاهد في تسلّق اللوح الخشبي المائل الذي يصل ما بين الأرض وتجويف الجدار. حرص على دعم نفسه جيداً لئلا يسقط. لم يجرؤ على التطلّع تجاه التجويف القاتم، إنما سارع إلى إيلاج رأسه فيه وتابع الزحف كسرطان؛ أصابعه حول طرفي اللوح، وتيّار الصقيع يلسع مؤخرة رأسه. لمّا أصبح جسمه على مستوى الفرجة، وثب إلى الداخل من غير أن ينظر. تسلّل متحسّساً نشارة الخشب الندية في الظلام الحالك وجسمه يرتعد من البرد. تخبّط فوق سطح اللوح الذي تعرّج لأن الثلج لم يُقتطع منه باستواء، فتخلّفت فيه تجاويف هنا وهناك، أو أكداس هناك وهنا. تجمّدت أصابعه من ملامسة الجوانب التي نتأ فيها الثلج مكشوفاً. مع ذلك دبّ حوالي المكان في حالة من الهياج، مدركاً في الوقت نفسه كم هو بارد.. كم هو فظيع. خفق قلبه، نبض صدغاه كما لو أنه

مُصاب بالحمى.. لا.. إنه لم يوشك أن يتجمّد، لكن الشعور الذي اعتراه مرعب.. كأنه قد دُفِن من غير أن يعرف أحيّ هو أم ميت.. وهذا كفيل بأن يجعل الفرائص ترتعد فزعاً.

سمع حسّاً في الخارج. تساءل عن هوية ذاك الذي مشى في الفناء. بدا له أن وقع تلك الخطوات يشبه وقع خطوات أبيه. زحف إلى الفتحة وأمعن النظر. نعم.. أبصر الأب يسلك الطريق إلى البيت. أراد أن يناديه، أن يرافقه إلى المطبخ، أن يمسك يده أثناء ارتقاء الدرج. لم يرغب في البقاء حيث هو.. لا.. وجد أن من الأفضل له البقاء.. أيقن أنه الأفضل حتماً. وبينما بقي مكانه يراقب بفم فاغر أخرس، اختفى الأب في الردهة.

يا لذلك المكان كم تبدّى له بارداً وشنيعاً.. الظلمة نفسها دائماً، والصقيع ذاته أبداً. حبا إلى مسافة أبعد حيث أحسّ بالبرد يزداد حدّة. غاص حذاؤه في النشارة المبتلّة، وواصلت الرطوبة تقطّرها من السقف والجدران. لبث ساكناً وأسلم نفسه بطريقة ما للصقيع.. لم يحرّك يداً ولا حتى إصبعاً.. وكأنه ما عاد موجوداً.

لا.. كم من الوقت مضى عليه وهو واقف بلا حراك؟! هل سها عن نفسه.. هل عضّه الصقيع؟! لا، ولكن رأسه وجسمه اشتعلا.

شعر أنه محموم، محموم جداً. أدرك أن عليه أن يقصد الفتحة ويعبّ هواء نقيّاً ويلقي نظرة على الفناء.

لاهثاً وقف عند الفتحة. حملق ورأسه لا يكاد يتجاوز الحافة، أصابعه متشبّثة بإحكام، وعيناه محتدمتان ومذعورتان. وفي تلك اللحظة ظهر الأب ثانية وهو يحمل سلّة بيده.

"بابا.." نادى بصوت ظنّ أنه عالٍ، غير أن ما ندّ عنه فعلاً لم يتعدّ شهقة خافتة لا يمكن سماعها في الفناء إلا بصعوبة.

"بـــــــــابا.." صاح مجدداً.

حينئذٍ، نظر الأب عالياً.

"ربّاه، ماذا تفعل هناك؟ تعال انزل! ما دهاك يا ولد؟ كنا نبحث عنك. ألا تريد الذهاب إلى جدّتك؟ سآخذ الترولي."

"إلى جدّتي!" هتف الصبيّ ملوّحا بذراعيه، "انتظرني بابا، أنا آتٍ، أنا آتٍ حالاً."

وبأسرع ما استطاع دفع نفسه على اللوح بالأيدي والأقدام، ثم اندفـــع إلى أبيه وتشبّث بذراعه.. بقوة.

"أيّ ترولي سنأخذ بابا؟" شهق، "ترولي نـــاظر المحطـــة أم ترولـــي كارلسون. ألسنا ذاهبيْن الآن؟ ماذا في السلّة بابا؟ أهي لجدّتـــي؟ مـــا ذاك بابا؟ سنذهب الآن.. فوراً بابا!؟" ثرثر بفوران بالغ.

"ما الحكاية؟" سأله الأب وهو يتمعّن فيه، "ماذا كنت تفعـــل هناك؟"

"لا شيء،" أجاب وغضّ بصره. "لقد.. لقد وقفت في الداخل قليـــلاً.. ثم أردت مرافقتك. ألن نغادر الآن بابا؟"

"تعال يا صغيري.. تعال،" قال الأب آخذاً إياه من يده، ثم مضيا معـــاً تحت أشعة الشمس عبر البوابة إلى الساحة الرملية.

آنذاك، بدأ الصغير يستعيد هدوءه شيئاً فشيئاً، حتى انتظمت أنفاســـــه

التي خرجت بمشقّة في البداية. تطلّع حوله؛ عالياً صوب السماء، أرضاً حيث الرمل المُقلّب حديثاً يتكوّم أصفر ومتلألئاً في وهج الشمس، وإلى الأمام تجاه سياج الزعرور الذي زخر بالأزهار حتى غدا شبه أبيض. وعندما قطعا مسافة صغيرة عاين الأب بنظرة مترددّة، ثم جذب ذراعه.

"من الرائع أن نقود الترولي،" قال أخيراً وضحك ضحكة خجِلة.

"إيه نعم، لا بأس بهذا،" أجاب الأب.

بعد بضع خطوات، انفلت من ذراع أبيه، وجرى قدماً وفتح البوابة المؤدية إلى ساحة السكّة. تنطنط حتى منتصف الدرج مقعقعاً بقدميه، عاد ليرافق الأب، ثم انطلق ثانية إلى المسارات ومشى تارة على القضبان وتارة بمحاذاتها، مرّة جيئة ومرّة ذهاباً.

"أرى أنك في مزاج جيّد اليوم.. ها؟" قال الأب.

"نعم، إنه يوم لطيف. انظر إليّ بابا وأنا أجري فوق القضبان!"

"حاذر أن تقع،" صاح الأب.

لكنه لم يقع، وما لبث أن عاد أدراجه.

"أين الترولي بابا؟"

"ممم.. حسناً.. سنكتشف هذا حالاً. إنه هناك في مخزن البضائع."

وسرعان ما أصبحا "هناك"، حيث وجدا البدعة العجيبة مسنودة على الحائط؛ عربة ثلاثية العجلات وعمود طويل لدفعها.

هذا كل شيء.. لا معجزات.

في البداية، اضطرا إلى الاكتفاء بالمشي خلفها ودفعها، لكن السلّة وُضعت فيها.

"ألا يمكن أن نبدأ الآن بابا؟" تساءل الصغير.

"صبراً.. صبراً.. " أجاب الأب، "انتظر فقط حتى نتجاوز نقاط التحويل."

انطلق الصبي على إثر ذلك ليتأكد من أن نقاط التحويل مفتوحة بالاتجاه الصحيح، لئلا ينقلب الترولي بسلّة الجدّة وما فيها من البنّ والسكّر ولقمة الخميرة التي تتصدّرها جميعاً. وحرص على رفع العجلات كلما علقت. وعندما لم يجد ما يعمله قفز قرب الترولي.

كانت قبور مدفن البلدة تحتلّ الخلاء الممتدّ من أحد جانبي ساحة المحطّة إلى خطوط السكّة الثانوية. لكن آندرز حرص على تجاهلها، وتعمّد النظر صوب الناحية الأخرى. ومع أن مساحتها الطويلة نوعاً ما تبعتهما إلى المخرج، رأى أن في إمكانه دائماً التشاغل بالترولي والسلّة، أو التفرّج على أكوام ألواح الخشب في الجانب الآخر.

وبالطبع يستطيع أيضاً أن يدردش مع أبيه. وهكذا مضى الوقت بسرعة.

لما اختفت القبور، وظهرت شتلات الزيزفون على مرج ينتظر أولئك الموشكين أن يموتوا، أولئك الذين لم يموتوا بعد، عرف أنهما قطعا مسافة جيدة، فاندسّ بأبيه وهمس..

"ألا نبدأ بابا؟"

"آ.. نعم، اصبر قليلاً يا ولدي.. قليلاً فقط."

ثم ما إن بلغا البوابات وتجاوزاها حتى باشرا الانطلاق. قعد آندرز بالعرض وقدماه صوب العجلة الصغيرة، وثبّت نفسه والسلّة جيداً. أما الأب فوقف في الجهة المديدة بين العجلتين الكبيرتين وتولّى عمود الدفع. وما لبثا أن استجمعا للتروللي سرعة حملتهما خارج البلدة في طرفة عين. تابعا المضي والعمود المقبوض عليه بإحكام ثابت ومتناسق مع الحصباء، والعجلات تدور بأقصى سرعتها، ومفصلاتها تتكتك كأنها لقطار حقيقي. وعلى الرغم من سكون الريح، اضطرهما تيار الهواء المندفع إلى تغطية آذانهما بقبعتيهما.

"متمسّك جيدا؟" صاح الأب وهو ينحني ليحصل على المزيد من السرعة.

"نعم!" ردّ آندرز ورنا إلى أبيه وضحك.

استقبلهما أولاً امتداد مستقيم وراء المرج، دوّمت فيه الأزهار أثناء عبورهما كأنها النقاط. وهذا جعل التعرّف على أنواعها غير ممكن. لكن الريح هبّت من صوب الرابية مشبعة بأريجها كلها. أطلّت بهما الطريق بعد ذلك على غابة مختلطة فيها قليل من كلّ شيء. من هناك انثال عليهما الهواء مفعماً برائحة التنّوب الحادّة، وعبير البتولا بعذوبته التي ما زالت قابلة للتمييز، وأريج العرعر والدردار والصنوبر. ثم لامستهما نفحة من عطر الفراولة أثناء مرورهما بعدّة رقع منها على طول الرابية؛ رقع أشرقت بحمرة فاقعة جداً جعلت المرء يستمرّ في رؤيتها حتى بعد اختفائها. لكنهما واصلا الاندفاع إلى الأمام فحسب.. أبداً يجتازان الأشياء.. وأبداً يتقدّمان.

أشرفا على منحدر مزدحم بأزهار من شتى الأنواع التي تخطر على البال؛ أقاحي عين الثور، رجل العصفور، حوذان، زيزفون، خصل شاردة من البرسيم، شوفان برّي، أجمات عليق.. والكثير غيرها. جميعها بصّت لبرهة بألوانها الزاهية وروائحها ثم تقهقرت بسرعة.

وكذلك فعل العرعر والبتولا والتنّوب في الغابة. أما أعمدة الـــهاتف فبانت وهي تنأى عنهما وكأنها تنشد الفرار منهما إلى بيوتها.. كأنـــها لا تريد مرافقتهما.

قعد آندرز يتشرّب كلّ شيء بعينين محملقتين. ممتقـــع الوجنتيـــن قليلاً من لسع الريح، ولكن متّقداً حماسة وإثارة. خفق قلبه وخفـــق، وبدا كما لو أنه في حالة من البحران. ووقف الأب يراوح بين دفـــع نفسه إلى الأمام والخلف للحصول على سرعة جيّدة، وعينـــاه علـــى عمود الدفع خشية أن يخبط العارضات وينزلق. وهذا ليس أكثر مـــن مجرد إجراء احتياطي اكتسبه بحكم العادة. تحسّنت سرعة الـــترولي أكثر فأكثر، وبلغا القنوات التي يلتوي عندها خطّ الســـكّة ليتجنّبـــها. وظهر الماء في كلّ مكان؛ بحيرات، أنهار، جداول وبرك. انتهيا فـــي الوسط إلى قنطرة صغيرة حيث لا بدّ أن يمرّ أحد الجـــداول. بـــذل الأب مجهوداً مضاعفاً هنـــاك، وقعقعـــت القنطـــرة تحتـــهما بينمـــا تجاوزاها.

"لا تفقد قبعتك!" هتف الأب وهو يرنو إلى الصبيّ.

"لاااا!" صاح آندرز وأحـــكم القبض على قبّعته والسلّة وكـــلّ شيء.

وعندما مرّا ببيت عامل خطوط بلدة "نيس" كانت سرعة الترولي في

أوجها. وهناك، تطلّع إليهما أولاد عامل الخطوط من بين الليلك بذهول، ثم سارعوا إلى الإمساك بأطراف مآزرهم وانحنوا لهما. وصلا بعد ذلك مباشرة إلى جسر النهر الكبير. وتوجّب عليهما أن يستحثّا الترولي بدفع العارضات وتيّار الماء الواسع يصطخب تحتهما.

لما انتهيا إلى محطة "نيس" خفّف الأب السرعة، ولكن لوقت قصير، لأنها محطّة صغيرة وليس فيها سوى مسارين للتحويل؛ واحد عند كل نهاية. شاهدا ناظر المحطّة يتمشّى في الخارج متفقّدا منطقته. وما إن رآهما حتى حيّاهما وكأنه يُحيّي قطاراً حقيقياً. قطار من تلك القطارات التي لا تتوقّف في المحطات الصغيرة كمحطّته.

استعادا سرعتهما السابقة وتابعا المُضيّ. تجاوزا مساحات محروثة وحقول برسيم، وأرضاً واسعة مهملة تابعة لمزرعة كبيرة. وانتهيا إلى غابة أخرى؛ غابة حفلت هذه المرّة بأشجار موسمية انتصبت على كلا الجانبين، صاخبة بأهازيج الطيور، ولامعة تحت أشعة الشمس. وفي تلك المنطقة، صادفا ثمانية رجال عاكفين على السكّة يبدّلون العارضات المتضعضة. توقّف الرجال عن العمل لفترة وجيزة ريثما يمرّ الترولي. وبالطبع، لابدّ من تبادل التحيّات على

T

الرغم من السرعة، إلا أن رفع القبّعة في تلك الحالة هو أكثر مما يجرؤ عليه أحد. وبكلّ تأكيد يجب أن يردّ آندرز السلام مثل أبيه، غير أنه فعل ذلك بدون أن يلتفت لأن عليه الانتباه للسلّة.

أفضيا بعدئذ إلى تلّ متدرّج الارتفاع، ترقى السكّة إلى قمّته، ثم تعود لتنحدر مباشرة خلال الريف المفتوح إلى ما يُسمى بالشارع؛ درب يمكنك أن تسافر فيه بدون مقابل.. مجاناً.. ما عليك إلا أن تئز بعربتك عليه. لم يعرقلهما ذلك المرتفع كثيراً بسبب سرعة الترولي. ولما بلغا قمّته، وحيث يوجد بيت عامل خطوط آخر، لمحا الرجل فوق السطح قرب المدخنة يدهن السقف بالقطران تحت وهج الشمس.

"ها.. أي نوع من الامتيازات هذا!" صاح عليهما من الأعلى.

"هذا ما نحن عليه،" هدر الأب في وجه الريح لأن الترولي بدأ آنذاك ينهب المنحدر. ثم سارع إلى جذب العمود، وجهّزه ليكبح به إحدى العجلات إذا استدعى الأمر.

صفر الهواء في آذانهما، ودارت العجلة الصغيرة تحت قدمي أندرز بسرعة هائلة كادت تجعلها غير مرئية. وبدت وهي تطفر وتثب بفرح من نقطة إلى أخرى، كالمُهر الصغير لحظة إفلاته في

الصباح. هناك، انحدر بهما الخطّ مستقيماً. واستقامت معه أيضاً صفوف أقاحي عين الثور والحوذان وزهر الربيع، وكذلك أسلاك الهاتف المشدودة التي لمعت تحت الشمس. وبينما واصلا الاندفاع، نفرت العصافير الفزعة من على تلك الأسلاك، ولجأت إلى غابة نسجت أشجارها وأحراشها معاً جداراً غضّاً. وهرع سنجاب أفقده الخوف صوابه إلى تسلّق ذلك السياج، وكأنه ليس من الممكن المرور عبره.

انتهى المنحدر الطويل خلال دقائق معدودة. وانفتح عليهما الريف في جميع الاتجاهات؛ على أهوار وبحيرات صغيرة وأشكال مختلفة من المياه. على أحزمة محروثة ومراعٍ ومروج مُسيّجة ومربّعات مفلوحة تستعصي على العدّ. على مستنقعات وأحراش ومزارع تناثرت تحت الشمس بين حقول الشوفان والجاودار. وحينئذٍ بدأ يخففان من سرعة الترولي. ومع ضياء النهار الذي انسكب وديعاً وحرّاً، ظهر لهما كلّ ما حولهما واضحاً. وعلى مرمى من البصر لاح بيت الجدّ في فيء مجموعة من أشجار القيقب.

تابع الترولي تقدّمه، ودرج بهما على نحو مسالم فوق نهر عريض تهدّبت حافّتاه بالقصب وأوراق النيلوفر، واضطربت أفواج السمك

الأبيض في لألاء المواضع الضحلة منه. انتهيا إلى مسلك وعر متقاطع مع الخطّ، فرملا الترولي وقفزا خارجه.

لقد وصلا أخيراً إلى وجهتهما.. أصبحا "هناك".

"سارت الأمور على ما يرام!" قال الصغير ضاحكاً وهو يمشي نافضاً ذراعيه. أما الأب فابتسم ابتسامة رضا، وطرح الترولي على العشب قرب المسلك. ثم مضيا معاً عبر البوابة إلى الحقول والسلّة بينهما. ترنّح الصبي في مشيته لأن الجذل أعجزه عن تحريك ساقيه كما ينبغي. وحتى الأب بان عليه الانتعاش، ومشى برشاقة شابّ عشرينيّ. وما فتئ آندرز يهزهز السلّة، ليزيد في الترفيه عن أبيه، ولترنّ على إثر ذلك ضحكاتهما المفعمة ابتهاجاً خالصاً..

لأنهما في الخارج.. ولأنهما يمشيان معاً.

فكّر آندرز في تلك الغرابة التي تكتنف شخصية الأب. فهو على الرغم من أنه مخلوق بشٌ بفطرته، نادراً ما ظهر عليه هذا، ولا يكاد يتجاوز بضع مناسبات. وبدا دائماً وكأن شيئاً ثقيلاً جداً يربض في صدره. شيء لم يتمكّن من التخلّص منه، فاستسلم له، وعاش حياة تغلب عليها الرزانة، بل والحزن أحياناً. وليست همومه على كثرتها السبب، إنما هذا ما تطبّع به؛ أبداً يُثبطه الجانب السوداوي من

كينونته وكأنّ السعادة ليست عدلاً، وأبداً تقمع جدّيته سجيته المرحة. بيد أنهما كليهما كانا منشرحين ومبتهجين آنذاك وهما يحثّان السير قدماً، ويوغلان في المنطقة المألوفة لهما حيث الأرض تنبسط بكلّ ألقها الأخضر في سناء القيظ، والدخان يتصاعد من الجاودار، والنسيم يرتعش فوق السياج الذي لفحته الشمس.

حادا بعيداً عن النهر. وأثناء تجاوزهما الطاحونة ظهر الطحان الضخم المعفّر بالطحين في اللحظة المناسبة وسلّم عليهما. من هناك أفضيا إلى ما فوق قنطرة جدول ثم صوب أكمة واطئة. وما إن ارتقيا الأكمة حتى أصبحت المزرعة ومبانيها تحت أنظارهما

مباشرة. كان البيت عالياً، وذا جملون ضيّق خبا طلاؤه الأحمر القاني تقريباً، فبان الخشب الرمادي تحته. على سطحه نمت الطحالب المتخلّلة بالعشب المختلج، وعنه ارتفعت رؤوس أشجار القيقب. أما المبنى الفرعي المنتصب في الناحية الأخرى من الدرب، فقد أنبأ عن القِدم إلا في القسم الوحيد الموسّع منه.

استعجلا بقدر ما يستطيعان الاستعجال وهما يُمعنان النظر، لعلّهما يريان أحداً يلوّح لهما عند الستائر. لا، لم يشاهدا أحداً. لكن عِجلاً صغيراً ما لبث أن طفر وثباً لملاقاتهما. مطّ عنقه الغضّ فوق حافة السياج، كمّم فمه بأصابعهما وجأر، فاهتزّت الستارة. وتزامن هذا مع شروعهما في قطع الحديقة. حديقة أُفعِم أثيرها بأريج المنثور والخُزامى والبليحاء، وعمرت بأشجار التفاح والإجاص والليلك. وحفلت أيضاً بمساكب وُضعت خارجاً في الصيف، وحوت تشكيلات من عود الصليب والأضاليا والقطيفة الزاهية والخطمي الممشوق وإبرة الراعي.

تقدّم آندرز عبر ممرّ الحديقة المسوّر بوشيع واطئ على رؤوس أصابعه، ليختلس النظر من فوق الوشيع إلى شجيرات الكشمش. لكن الجدّة سرعان ما ظهرت عند عتبة الشرفة مُطوّقة بجميع أزهارها.

"يا صغيريَّ العزيزيْن، هذا أنتما إذاً!" رحّبت بهما العجوز التي دعتهما معاً بالصغيرين لكبر سنها. ولطالما فكّر آندرز أنه ما عوف في حياته أحداً أكبر منها. كان وجهها هزيلاً مُنهكاً، غير متغضّن ولكنه حافل بالأخاديد. قامتها قصيرة وبُنيتها قوية، وتنورتها رمادية وخشنة كالأرض. ويمكن المرءَ أن يلاحظ فوراً شبهها الشديد بالأمّ؛ العينان ذاتهما، والشعر نفسه لولا الشيب. وكذلك البياض الهشّ عينه على الرغم من الصرامة التي يوحي بها مظهرها. صافحتهما وشكرتهما على القهوة والسكّر، وجميع محتويات السلّة التي أصرّ الصبي على أن يريها إيّاها فوراً. ثم دفعتهما عبر الباب وتبعتهما بجوربيها المحبوكين.

في الداخل فاحت عليهم رائحة غريبة تصاعدت من الخشب العتيق، ومن السماد الجافّ المعلّق إلى جانب القباقيب في الشرفة. ونفذ إليهم من غرفة علوية ذَفَر البصل المنشور على ورق مُصفرّ. رفعوا سقّاطة الباب وولجوا غرفة المعيشة الكبيرة.

بدت الغرفة على إثر الضياء في الخارج معتمة. وما احتوته من أثاث لم يتعد سريرين ضخمين تُجلّلهما الأغطية، وطاولة كبيرة في الوسط، ونولاً لنسج الكتان قرب النافذة. هذا إضافة إلى موقد

مكشوف تدلّى فوقه قدر نحاسي كبير، فيه بضع حبّات بطاطس ينبغي سلقها للخنازير. وهناك، عند الموقد، قعد الجد ببنطال من الفرو وصِدار جلدي ذي أزرار معدنية، وتعهّد النار. كان رجلاً هرماً وقوياً، وجهه كبير وعريض وحليق، فمه صارم وخالٍ من الأسنان. أما شعره الطويل الأبيض فيبلغ حدود كتفيه. ولمّا دخل الضيفان لم يتحرّك من مكانه بسبب التيبّس في ساقيه. وانتظر حتى يجيئا إليه.

"ها.. كيف حال الجدّ؟" هتف الأب.

"الحمد لله،" أجاب الشيخ بنبرة ذوي السمع الضعيف العالية، "لا ينقصني شيء. ما أخبار الجميع في البلدة؟"

"كلّهم بخير، أشكرك على السؤال، جميعنا بصحة جيدة،" ردّ الأب بصوت عالٍ واضح.

"وأنت يا صغير، كيف نجحت في اجتياز هذه الرحلة الطويلة مع أبيك؟" قال الشيخ وهو يحمل الصبي ويضعه على ركبتيه، ويمرّر عليه يداً معروقة ضخمة.

آنئذٍ تملّك آندرز ذلك الشعور الغريب الذي يكتنفه كلما قعد مع الجدّ. وإذ رفع نظره إليه متمعّناً في وجهه الجلف، جاهد للتشبّث

بصِداره الجلدي الذي استعصى على أصابعه القبض عليه من شـــدّة صلابته.

قعد الأب والجدّ يتبادلان الحديث. وأمضيا في ذلك وقتاً طويـــلاً. وفيما تكلّما جلجل البيت بوقع الأصوات الجهورية المتأنية. وما انفكّ الجدّ يستفسر عن أمر وآخر مما رغب في معرفته. بيد أنهما تـــداولا جميع ما طُرح بنبرة جدّية واحدة. وإن حدث وتطرّقا إلى ذكر شـــيء سارٍّ، ناقشاه بوقار أيضاً وكأنه يُثقل كاهليهما. لاحظ آنـــدرز أن الأب تغيّر على نحو ما، فقد قعد بيدين معقودتين وظهر منحنٍ، وبدا أكـــبر سناً، كما يبدو عادة عندما يستكين في المساء إلى الكتاب المقـــدّس. وفيما مرّ الوقت ملأت رائحة البطاطس الغرفـــة، وتغشّـــت النوافـــذ بالبخار. وأثناء ذلك ما فتئت الجدّة تتسلّ جيئة وذهاباً بيـــن المطبـــخ والغرفة، مُتنقّلة بجوربيها لئلا تزعج أحداً. تلك الجدّة التي لم ترتـــح في يوم قطّ، بل وما استطاعت أن تفعل، لأنها وجـــدت دائمـــاً مـــا يشغلها

رآها آندرز تُقبل وتفحص حبّات البطاطس، ولمّا لم تجدهـــا جـــاهزة التفتت إليه وقالت:

"والآن يا صغيري، ماذا عن الخروج إلى كرمة الكشمش!"

حينذاك، تنبّه إلى الأمر. أدرك أنه ليس من المناسب لـــه أن يبقـى بصحبة المسنّين. فنزل من على ركبتي جدّه، وتوجّه إلـى الحديقـة بهدوء.

في البداية، كاد بريق الأزهار يخطـف بصـره، خصوصـاً عـود الصليب الذي شعّ كألسن اللهب في كل مكان. تأمل الحـائط الـذي جلدته الشمس، والأزهار التي فتحت أكمامها طوعاً، فتزاحم عليـها النحل، بينما وكزتها الفراشات الفتّانة برفق جمّ وكأنها تتقوّت بالأريج فقط. تسلّل إلى الكرمة. وجد التربة تحتها دافئـة وممـهّدة. وحيـث قحف الدجاج الأرض،تخلّف بعض الريش والقليل من الركام كـالذي يُعدّه لوضع البيض. دفع جانباً شيئاً من الفضلات الجافّة، استقرّ فـي فسحة ملائمة الاتساع، مدّ يده إلى الأغصان وبدأ يأكل. عاين العناقيد التي طوّقته من جميع الاتجاهات بنكهاتها وأحجامها المختلفة؛ الظليلة منها كبيرة وحامضة، والتي تحت الشمس صغيرة وحلوة. عرف أنـه يستطيع أن ينتقي ويختار وفق ما يروقه من مذاق، لكنه فعـل هـذا برويّة وتعقّل، فقد أراد أن يأكل لفترة طويلة.

وهكذا.. استقرّ في مربضه نائياً عن السمع والبصر، مع أنه ليس ثمّة ما يمكن سماعه أو رؤيته. لا أحد في الحديقـة، ولا أحـد فـي

الدرب. كلّ شيء مسالم وهادئ. فقط في الهَور عند النهر قد تخور بقرة بين تارة وأخرى، وقربه تحت شجيرات الكشمش قد تطنّ بضع ذبابات. هذا كلّ ما في الأمر. الهواء حوله ساكن، والقيقب غفا واقفاً تحت الشمس، وحتى أشجار الحور المشهورة بقلقها انتصبت بلا حراك قريباً من الجملون الجنوبي. في وسط تلك السكينة المهيمنة، عَمِد أحيانا إلى دفع غُصيْن جانباً، ورنا عالياً مستريحاً على رقعة سماء ظهرت من بين العناقيد، أو على غيمة تراخت هناك عاجزة عن متابعة السفر.

ما كاد يكتفي من الأكل ويشعر بالامتلاء حتى ظهرت الجدّة عند العتبة وهي تحمل البطاطس للخنازير. لمحها تبحث عنه بعينيها، وتصيخ ولكن بدون إلحاف.

أين تختبئ يا ولد؟" نادت، "ألا تريد أن تأتي لإطعام الخنازير؟""

تسلّل بهدوء تحت الدوالي، وفاجأها بالوثوب أمامها عند البوابة، فأفزعها قليلاً. ولو أنهم في الليل لفزعت بحقّ.

مضيا معاً إلى الحظائر. ووجدا الخنزيرة الأمّ قابعة في الزريبة ترغي وتزبد، وصغارها حولها تلتقم جميع حلماتها. وعندما قامت لتأكل بقيت هنيهة مشدودة إلى الوحل، لأن جبل اللحم ظلّ متعلّقاً بها وهو يهمهم بسرور، لكنه ما لبث أن وقع أرضاً في جميع الاتجاهات. أقبلت الخنزيرة على الحوض والتهمت محتوياته دفعة واحدة، ولم يفلح الصغار في بلوغه على الرغم من المحاولة.

بعد ذلك، ذهبت الجدّة والصبي ليُنهيا أموراً أخرى في الحظائر؛ إذ ينبغي إزالة روث الثيران منها، ولا بُدّ من تفقّد بقرة أُبقيت في الداخل لأنها قاربت الوضع. ويجب أيضاً فتح المصارف المؤدية إلى حفرة الروث؛ فالمنطقة هناك افتقرت صيفاً إلى السماد الذي أُهدِر أغلبه في المراعي. وفي ذلك الوقت لم يكد يتوافر منه أكثر من

بركة ضحلة لمعت فيها الشمس. استدارت البقرة بتثاقل في مربطها، وخارت بينما نظرت خلال الفرجة، وعند ألواح الطابق العلوي قوقأت إحدى الدجاجات بحدّة.

"لا شكّ أنها باضت،" قالت المرأة العجوز. "اصعد وانظر يا آندرز!"

ارتقى السلّم، ومكث في العتمة قليلاً. تشقلب على القشّ الذي فاحت منه رائحة طيّبة، لأنه كان جديداً ونظيفاً وغضّاً، وللمرء أن يسقط فوقه أينما اتفق. لم يزعجه الظلام كثيراً. مضى إلى الفرجة الصغيرة الوحيدة التي ينفذ منها النور وألقى نظرة. تباطأ هناك برهة مدلّياً ساقيه. ثم عاد بالبيضة وأخرى وجدها في كومة ثانية منفوشة.

"خذهما لأمّك،" قالت الجدّة.

تأمّل آندرز جدّته والرضا يغمر قلبه، لأنه بصحبتها، ولأنه يساعدها في مهامّ غريبة، ويدردش معها بين حين وحين. فقد عرف أنها رصينة ومُحنّكة، ولكنها في الوقت نفسه ذات دماثة جمّة نادراً ما برزت للعيان، كأمّه تماماً. ويشعر المرء عندما يلازمها أنه يرى كلّ شيء بوضوح كبير، وهذا يشيع في النفس إحساساً مميزاً بالأمان.

عندما انتهيا من مهامّ الداخل، خرجا إلى المرعى لحلب الأبقار قبل

حلول المساء. خصوصاً أن الأصيل قد بدأ يخبو، على الرغم من أن الشمس ما زالت تطلّ دافئة. وطِئا العشب الندي حافيين، وتتبّع آندرز قدمي الجدّة الضخمتين وهما تدوسان الخصل الطرية. لاحظ أنهما مجعدتان جداً، وحافلتان بالمسامير السميكة بسبب انتعالها القبقاب الخشبي. ولمّا وصلا، سعت الأبقار إليهما وأسلمت أنفسها للحلب بإذعان. واضطر آندرز إلى تثبيت ذيولها، حتى يمنعها من تلويحها لهشّ الذباب الذي لم يدعها بسلام.

كانت المنطقة هناك تتميز بالجمال، بالرغم من أن أناسها ليسوا أثرياء. وإذ وقف آندرز يسبر الأفق أمكنه أن يبصر الأبرشية عند مسرى النهر المتغلغل فيها، والأرض التي ترامت واسترخت مستكينة، وظلال البيوت التي استطالت حتى بلغت النهر. ولاحت له على مدّ النظر تشكيلة متنوّعة من المروج والمنحدرات المُشجّرة والقطاع المحروثة مع أن المنطقة منخفضة بمجملها. وفي الناحية الأكثر انخفاضاً، حيث وقف، رأى أن اليابسة لا تكاد ترتفع عن مستوى النهر. وعند المستنقعات التي تخلّلتها برك قاتمة، بدا الماء المشمّس مضطرباً بالخنافس وما يشبهها..

نعم.. كان ذاك اليوم يوماً صيفياً مثالياً، والفرح به غمر حتى

أصغر الحشرات.

انتهى حلب الأبقار، واتجه آندرز وجدّته إلى البيت بالحليب. وفي تلك الأثناء تصاعد هدير رعد في أقصى الغرب، وعبق الجو بعض الشيء. صادفا خاله المسؤول عن إدارة المزرعة وهو يقود الثيران بعد أن عاد بالحطب من الغابة. سُرّ آندرز بلقائه كثيراً. كان أزرق العينين أشقر، في أواسط العمر، قصيراً ممتلئ الجسم، قويّ البُنية على الرغم من سِمات الإرهاق الظاهرة عليه. فَقَدَ ذات مرة إصبعاً في زفاف وهو يطلق الرصاص ابتهاجاً. ولما صافحه آندرز تهيأ له أن لجلده القاسي ملمس لِحاء الشجر. ساعده آندرز والجدّة في فكّ

نير الثيران وإدخالها إلى مرابطها. ولاحظ الصبي أن خاله بدا هادئاً جداً في تلك الأمسية، أو بالأصحّ منهكاً. ويمكن استشفاف ذلك الإنهاك من طريقة تنفّسه، كما هو الحال عادة مع الأشخاص الذين يمارسون أعمالاً شاقة.

يمّم الثلاثة الحديقة بعد فراغهم من الثيران. وهناك قعقع الرعد ثانية وتلبّدت السماء. ولم يستطع أحد أن يفهم كيف انقلب الجو في لحظة، بعد صفاءٍ امتدّ اليوم بطوله. وفي البيت، وجدوا الأب والجدّ لا يزالان قابعين مكانيهما ومسترخيين في العتمة. وباجتماع شملهم حان الوقت لتناول العشاء.

نفخت العجوز مزيداً من الحياة في نار الموقد، ووضعت فوقه مقلاةً فيها أضلاع لحم. أخرجت الصحون، وحضّرت المائدة بينما تشاغل الرجال بالحديث. خشخشت الريح بالقيقب في الحديقة، وزادت حدّة العتمة داخل البيت. حطّت الجدّة المِقلاة على الطاولة فوق لوحين خشبيين واللحم يطشّ باعثاً في الجوّ رائحة طيبة.عندئذ، قام الجدّ، تلا صلاة المائدة بصوت عالٍ وبوقار، ثم.. وكما لو أنهم جميعاً أُثقِلوا بكلماته أخذوا أماكنهم إلى الطاولة، سكبوا لأنفسهم وباشروا الأكل.

لم ينبس أحد منهم ببنت شفة أثناء انكبابهم على تناول الطعام. وجلست العجوز بمعزل عنهم بعض الشيء، عند الطرف الآخر للطاولة. وبين حين وآخر تسلّلت إلى المطبخ ثم عادت متثاقلة.

أضاء وميض البرق الغرفة، وأتاهم صوت الرعد من ناحية قصيّة. تطلّعوا إلى السماء، ولبثوا يترقّبون.

"أخطأنا في إشعال النار،" قالت العجوز.

"إنه بعيد،" أجاب الخال وهو يسكب لنفسه صحناً آخر.

اهتزّت الأشجار من جديد في الخارج، حيث السكون البالغ جعل حفيف كلّ ورقة هناك مسموعاً. لاطمت أغصان الخطمي الزجاج، سطعت النوافذ ثانية، ثم اشتدّ هزيم الرعد، وظهر على الفور وميض جديد.

" يُستحسن أن أغادر إلى البيت،" قال الأب.

"عسى ألا تحتجزك العاصفة،" غمغمت العجوز.

"ليس باليد حيلة، لدي مأمورية هذا المساء، وقد أتمكّن في جميع الأحوال من تفادي العاصفة. لكن أرى أن يقضي آندرز ليلته هنا، وسنأتي لاصطحابه في الصباح."

استهجن الصبي الصغير فكرة الافتراق عن أبيه.. يبقى وحده!! أتراه أراد ذلك؟! لا.. لم يعد المكان يبدو له كما بدا عليه من قبل. بل إنه في الحقيقة فضّل العودة إلى البيت.

لا.. لا يستحقّ الأمر المجازفة.. قرّر الكبار.

لما أنهوا وجبتهم استأذن الأب في الانصراف. راقبه آندرز وهو ينتقل من واحد لآخر مودّعاً. تبعه بعينيه، ثم رافقه إلى الشرفة،

ووقف يرصده والحديقة حوله تتشعّب قاتمة كئيبة، والقيقب الباسق ينتصب كالحاً بسبب عصف الريح في أوراقه. ولمّا تلاشى الأب وراء المرتفع انتابه شعور غريب.. هل.. هل يلتقي به مرة أخرى؟!!

أنار وميض حادّ المنطقة بأسرها، فلاحت الأرض رمادية وميتة عند المستنقعات ومنحدرات الخلنج والحقول المحروثة. ثم توهّجت السماء فوق آندرز مباشرة، فهرع إلى البيت بسرعة، وصفّق الباب الخارجي وراءه بقوّة. نطح باب غرفة المعيشة، واندفع إلى الداخل متيبّساً وممتقعاً من الخوف. تصاعد رغاء الرعد باطشاً من كلّ الاتجاهات، وصلصلت ألواح الزجاج. رفع الشيخ القابع عند الموقد رأسه، نظر حوله، ثم من خلال النافذة.

"من الجيّد أن نسمع الرعد،" قال، "هذا يجعلنا نعرف أن الربّ يحكم الكون!"

ثم نهض بصعوبة وتؤدة وذهب ليجلب إنجيله.

"أين فرشاتي يا ستينا؟" قال.

أحضرت له العجوز فرشاة مستديرة يدوية الصنع من شعر الحصان وبمقبض من المصيص المجدول. وانهمك الشيخ في تمشيط شعره

إلى أن استرسل أبيض ولامعاً على كتفيه، ثم حلّ مشابك الإنجيل الضخم، فتحه، وطفق يقرأ:

"اسمعوا واصغوا لا تتعظّموا لأن الرب تكلّم. اعطوا الرب إلهكم مجداً قبل أن يجعل ظلاماً وقبلما تعثر أرجلكم على جبال العتمة فتنتظرون نوراً فيجعله ظلّ موت ويجعله ظلاماً دامساً."

رفع صوته أكثر من المعتاد أثناء القراءة، فرنّت كلّ كلمة من كلماته في الغرفة واضحة ومدوّية. ودبّت العجوز في المكان وهي تستمع بخشوع، ثم توقفت وصعّدت زفرات ثقيلة. أما الخال فجثم عند النافذة ينظر خارجاً.

ضاءت الغرفة بالبرق، وتوهّجت الأشجار في الحديقة، وفي الحال دوّى الانفجار. لكن الرجل العجوز لم يتزحزح وتابع القراءة. ولما انتهت الجدّة من تنظيف الطاولة، سحبت كرسياً وقعدت لتصغي بإمعان. لا أحد منهم حرّك ساكناً. وعندما أصبحت العاصفة فوقهم تماماً، خبطت الصواعق بين النوافذ، وجرى المطر على الألواح الزجاجية، ولعلع الرعد بدون انقطاع..

طوال ذلك الوقت لم يستقرّ للصبي مقام في الغرفة؛ جثم عند النول، زحف وربض قرب الطاولة، ثم في الزاوية إزاء أحد

السريرين، مسترشداً في ذلك كلّه بتوقّعاته عن المواضع التي قد يطالها البرق. أما الباقون فلبثوا في أماكنهم صامتين وأرهفوا السمع. لم يرفع عينيه عن جدّه قطّ. كان ذلك الوجه المثلّم هادئاً، والجبهة ملساء تقريباً، لكن الأخاديد العميقة في خدّيه وحول فمه توحي للمرء أنه عاش حياة ماجنة طويلة. في الحقيقة، يمكن القول أنه جمح نوعاً ما في مطلع شبابه. بيد أنه لا داعي للتطرّق إلى هذا الموضوع، فآندرز لم يعرف شيئاً عنه. كما أن الجدّ منذ أن تجاوز فورة الشباب وبدأ يتقدّم في السنّ، حرص على أن يجعل تقوى الله هدفه في الحياة، وترك نفسه تسترشد طريق الخالق، فنَعِم بسكينة لا يمكن لشيء أن يعكّرها.

بدأ الرعد يتجاوز المنطقة، وأخذ صداه ينأى أكثر فأكثر. وتابع الجدّ القراءة، في حين قبعت العجوز بيدين مشبوكتين ولاحقت شفتيه. أخيراً توقّف المطر، وما عاد يمكن سماع شيء في الخارج سوى حفيف الأشجار. وحين دقّت ساعة الحائط تسع مرّات، أغلق الشيخ الكتاب ونظر عالياً.

"آمين، باسم الله القادر على كل شيء، آمين."

وبذلك، حان موعد النوم.

غادر آندرز مكمنه وزحف قُدماً. تمنّى لهم الخال ليلة سعيدة وصعد إلى مرقده في الغرفة العلوية. وبقي الصغير وحده مع جدّيه الطاعنيْن في السنّ لأنه سيشاطرهما الغرفة. تملّكه إزاء ذلك شعور غريب. ولما بادرا إلى خلع ثيابهما اضطر إلى مساعدة جدّه في سحب بنطاله من ساقيه المتيبّستين. بعدئذٍ جثا الشيخ قرب السرير وتلا دعاء المساء بصوت رنّان، وساعدته العجوز على النهوض ثانية، ثم اضطجعا لينالا قسطاً من الراحة، وتدثّرا بغطاء من جلد الماعز حتى لا يبردا، على الرغم من أنهما في الصيف.

جهّز آندرز نفسه بسرعة، ودبّ إلى السرير الآخر الذي لم يشغل من حجمه الكبير حيّزاً يُذكر. لبد الغطاء القاسي فوقه، مُغطياً إياه حتى ذقنه، ومُثقلاً عليه أنفاسه.

استلقى يستجدي النوم. حدّق بعينين مبحلقتين في الظلام.. ذلك الظلام الذي حطّت حلكته على كلّ شيء.. خارجاً في الحديقة.. في الأسفل عند النهر.. بعيداً فوق المستنقعات.. لكن الحلكة الأشدّ على الإطلاق حطّت هناك.. حيث استلقى وحيداً مع العجوزين.

أرهف السمع. لم يستطع سماع شيء. تيقّن أن جدّيه قد ناما. حتى القيقب لم يتمكن من سماع حفيفه. ولا أيّ شجرة في أيّ مكان.. لا

شيء سوى السكون.. لكن السكون الأشدّ خيّم هناك حيث رقد.. لا شيء سوى دقات قلبه.

فكّر بجدّه وجدّته النائمين في الطرف الآخر وكم بلغا من العمر عتيّاً. فقد كانا هرمين تماماً، ولديهما رائحة عتيقة تختلف عن رائحته. رائحة تهيأ له أنه قادر على تمييزها وهو في سريره. بل رأى أن لكلّ شيء في ذلك المكان رائحة.. قشّ الفراش الذي اضطجع عليه.. الغطاء الخشن.. صوف الخراف المكوّم تحت النول.. ألواح الأرض الخشبية العريضة المتآكلة وحشوات فراغاتها المُسوَدّة.. السناج في الموقد المكشوف الذي فغر في الغرفة فمه.. والتراب العالق بالقباقيب الخشبية في الشرفة. كلّ شيء.. كلّ شيء فاحت منه رائحة عتيقة. كلّ شيء بلغ به الهرم حدّاً فظيعاً..

أتراه عجز عن استجداء النوم؟ خفق قلبه وخفق. خُيّل إليه أن الغطاء يضغط على صدره ويُعجزه عن التنفس. شعر أنه ساخن من رأسه إلى أخمص قدميه..

ما ذاك!! ما الذي سمعه!! صه! لا.. ليس ثمة شيء..

ترى.. ما الذي حال دون أن يسمع العجوزان كيف صعّدا أنفاسهما! أما استطاع هو سماع لهاثه بوضوح بالغ.. ماذا؟ أكفّ عن

سماعهما؟ لا.. لقد غرق المكان بالسكون! تهيأ له أنهما ربما ماتا! لعلهما ماتا! إنه يعلم أنهما كبيران جداً، وقريبان من النهاية، وقد تأتي النهاية في أيّ لحظة.

ولكن ماذا لو ماتا! أيقن أنه يجب أن ينهض. ينهض في الظلمة. لقد ماتا..

تلمّس طريقه في العتمة.. تخبّط.. اجتاز المسافة إلى السرير الآخر.. صعد.. مدّ يده.. تحسّس جدّه.. الرقبة المتغضّنة.. الفم الفاغر.. لا.. وجدهما يرقدان بخير وسلام.

انسلّ عائداً إلى سريره. غلب عليه الإعياء فنام. وما بين فترة وأخرى تقلّب باضطراب وتنهّد بعمق. حلم أن الظلمة تسود الدنيا، تنتشر في كلّ مكان، في الحديقة، بعيداً عند المستنقعات، في الغابة، في ساحة المحطّة، فوق الأب والأمّ، كلّ مكان.. كلّ مكان.. وأن الظلمة ليست إلا قبراً هائلاً سُجّي فيه جميع الأموات مع جميع أولئك الذين ما زالوا أحياء. وعالياً، من خلال سماء مستعرة جلجل صوت هادر راح يتلو كلمات مبهمة على الأحياء والموتى.

في الثانية عشرة من عمره، وذات يوم خريفي ماطر شديد الريح، ألفى آندرز نفسه منقاداً انقياداً إلى حجر يخصّه في الغابة خارج البلدة. وإذ شقّ طريقه في الجوّ البارد المُكفهر، تتبع خطّ السكّة بما أنه الطريق الطبيعي لمن يعيش قربه. لمح أباه عند رصيف الانطلاق يتنقّل بين العربات ويدوّن أرقامها؛ محدودباً قليلاً، ومبلل الظهر من المطر. فتسلّل إلى الطرف الآخر من صفّ العربات حتى لا يراه، لأنه بدون شكّ سيرغب في أن يعرف إلى أين يذهب آندرز في جوّ كذاك. وعندما تقاربا سمع وقع خطواته، فحرص على المشي بدون جلبة حتى لا يُفتضح أمره.

لم يخطر له قطّ أن الأمر سيؤول إلى ما آل إليه في ذلك اليوم

بالذات. لكن هذا ما حدث؛ فهو أول النهار لم يفكّر في الحجر، بل شُغل بأمور أخرى. ثم إنّ الصباح بدأ بطقس جيّد، واستمرّ كذلك فترة. وهو عادةً لا يقصد ذلك المكان في الأجواء المعتدلة. إلا أنه في ما بعد شعر أنه أفضل شيء يقوم به، فاتّخذ قراره بالمجيء..

مضى والمطر ينهمر عليه. لكنه لم يسرّع الخطى، بل مشى مُتَئِّداً شبه واهن العزيمة، ويداه محشورتان في جيبي سترته القصيرة ذات الأزرار المعدنية. مرّ بإحدى القاطرات وهي تغيّر مسارها، فهبّت عليه موجة دفء لطيف.

نعم، عندما نهض في السادسة صباحاً في البيت، بدا الجوّ صافياً على الرغم من البرد. قام باكراً ليتفرّج على البّحارة القادمين في أحد القطارات؛ مجموعة تتألف من خمسين شاباً يقصدون مركز البحرية عند الساحل. توقّفوا في المحطّة لتناول القهوة. وأُعدّت لهم في الفسحة أمام المطعم موائد طويلة، حيث قعدوا يتصايحون ويجأرون بأفواه محشوّة بالفطائر. وبينما تصاعد بخار القهوة ناشراً أريجها في قرّ الصباح، لوّحوا للصغار عند الشبابيك الضيّقة. إذ لا ريب أنهم اعتبروا رؤيتهم هناك مشهداً هزلياً. وبعد أن اشتروا السعوط، احتشدوا عائدين إلى القطار.

أخبار قدومهم وصلت في المساء السابق. وعرف الأطفال أنهم يستطيعون الاستيقاظ باكراً ليتفرّجوا عليهم. وحينما رحلوا أخذ آندرز إغفاءة قصيرة، ثم إلى المدرسة. تفرّغ لفروضه في استراحة الصباح، وجلب زيت البارافين لأمّه بالرغم من أنه لم يخطط للأمر من قبل، فهو لا يشغل رأسه بمثل تلك الأشياء إلا عندما تصبح ضرورية. حينذاك انقلب الجوّ، صار على ما هو عليه. بعد المدرسة، ساعد غوستاف في حمل كراسي الحديقة من المقهى الخارجي، لأنه ينبغي إدخالها شتاءً. كدّساها في صالة البولينغ التي أُغلقت خلال ذلك الفصل. وهناك، رمى غوستاف الكرة، وجعل القناني الخشبية تقعقع لآخر مرّة في الموسم. ثم يمّم آندرز البيت وحده. تريّث قليلاً وراء باب المطبخ، واسترق السمع على الأمّ وساين اللتين قعدتا تتهامسان حول شيء ما. وظنّ أنه يتعلّق بمرضه، وأنه من المحتمل ألا يدعه يعيش طويلاً. وليس ذلك الحديث بالجديد عليه، فهو ما برح يسمعه منذ ما يقارب السنة، مع أنه لم يحسّ أنه يشكو من أيّ علّة.

عند النافذة، قعد هنيهة يتفرّج على القطارات تحوّل مساراتها جيئة وذهاباً تحت المطر. ثم أيقن أنه لا بدّ له أن يقصد الحجر في ذلك

اليوم بالتحديد، لأنه ماطر وثقيل الوطأة. شعر أنه مضطر إلى الذهاب. لم يُخامره شكّ في صدق شعوره.. أدرك أنه دافع لا يُقاوم عليه الخضوع إليه.

بدأ يتجاوز المخازن عند أطراف المحطّة. لفحته موجة دفء أخرى أثناء مروره بعربة تُحمّل الفحم. وما لبث أن أشرف على منطقة الخطّ المفتوحة، حيث الخلاء يحدّها من الجانبين. تساقط عليه المطر الذي امتطى الهواء. وفي الأعلى عند الرابية، نحبت الريح المتقطّعة بغِلّ. طأطأ رأسه وهو يتابع المضي، وحرص على تحصين نفسه جيداً كلما هاجمته نفحة هوجاء. عرف أن رداءة الجوّ في الخلاء أشدّ من البلدة، إلا أن مهمته التي سعى إليها يجب أن تتكلّل بالصعوبة.. يجب أن تشبه القُربان...

ولكن.. ولكن.. ماذا عن تلك الأحاديث التي تتداولها الأمّ وساين سرّاً..؟! أيُعقل أنها ربما تتعلّق بشيء مختلف عما تهيأ له؟ ولكن ماذا؟ أحياناً، لاحظ على نفسه أن سمعه يُغالطه، وأنهما في الواقع لا تتكلّمان، بل هما قابعتان في صمت مطبق. بيد أنه واثق من أنه سمع في يومه ذاك وشوشة. فما الذي جعلهما تتعمّدان التهامس إن لم تعتقدا أنه سيموت قريباً؟

لو أن الأمر غير ما خُيّل إليه.. لرفعتا صوتيهما.

عوت الريح خلال الحقول في الجوّ الأشهب، وتهدّلت السماء. بدأ يشرف على الغابة من أعلى الرابية. همدت العاصفة قليلاً، وواصل المطر انهماره. تقطّر الماء من الأشجار، ودلّى التنّوب أغصانه غير مكترث بنشلها بعد أن غمرها البلل.

عاين الغابة تحته، وواصل السير بسرعة، لعلمه أن المسافة ما عادت طويلة. تسابقت حبات المطر على أسلاك الهاتف ميمّمة البلدة في الاتجاه المعاكس لاتجاهه. خطا فوق العارضات التي تكلّلت باللآلئ وقد منعها القطران من امتصاص النداوة. لما بات قريباً من مقصده نأى عن مسار السكة، تجاوز السياج إلى الغابة التي جعلها الجو السيئ معتمة على الرغم من أن الوقت ما زال مبكراً. تتبّع طريقه بين الأشجار والمطر يتقطّر عنها. بلغ مجازاً كلسياً تحيطه رقع الحشيش، وفيه حجر أملس لا يرتفع عن الأرض بأكثر من بضع بوصات. حجر لا يميّزه أي شيء. وإن تميّز بشيء، فليس سوى أنه الحجر الوحيد هناك. ليس ثمّة أحجار أخرى غيره، لأن الأرض الطحلبية رسّبتها جميعاً. نظر حوله بحذر، ثم تجاه السكّة خارج الغابة، مع أنه يعلم أن أحداً لن يطرق تلك البقعة. ثم جثم على

الحجر واستغرق في الصلاة.

كان كلّ ما يحيط به ساكناً، ما عدا وقع الماء المتحلّب من الأشجار. حتى هو لم يُسمع له حسّ. لم يتضرّع بصوت عالٍ، لكن الانفعال أجّج وجنتيه. ثبّت عينيه طوال الوقت على شجرة صنوبر توسطت منبسطاً سبخياً أمامه؛ شجرة غير مكتملة النموّ، بحجم رجل تقريباً، غير متناسقة وقزمة. لا، لم يوجّه توسلاته إليها، إنما هذا ما اعتاد أن يفعله فقط. لا بل وجّه صلواته للربّ نفسه الذي يُصلّون له في البيت. لا يوجد ثمّة اختلاف. كلّ ما في الأمر أنه فعل هذا هناك. لماذا؟ هو نفسه لم يعرف.. ليس أكثر من أن الأمور جرت معه على ذلك النحو. لا، لم ينشد من صلاته في الخارج التواصل مع الطبيعة. الطبيعة ليست شيئاً مقدّساً بالنسبة إليه، بل على العكس تماماً. لكنه رأى أن الصلاة في البيت لا نفع يُرتجى منها. غير متّقدة كفاية. غير متأججة أو توّاقة حتى تستحق الاستجابة. التيقّن من أنها ستُستجاب يتطلب الكثير. وهذا عينه ما جعل قدومه إلى الحجر عديم الجدوى في الأيام اللطيفة، حيث يغدو الخروج للتنزّه مُستحبّاً. ولا داعي أبداً أن يحاول آنذاك ولو مجرد محاولة.

لم يفكّر قطّ أن حاجته تلك إلى الذهاب مُضنية وغريبة، وأنها

T

لطالما أسقمته. لم يفكّر إلا في أنه ينبغي له أن يتكلّف المشقة.. لابدّ من تكلّف المشقة. أصرّ.. أصرّ على أن يتبع نهجه الخاصّ في الحياة، وعاش في عالم من صنعه؛ عالم ضيّق خنقته معتقدات وشرائع لا يجوز العبث بها، ممنوع مخالفتها. فحامَ ودوّم كشخص قبع في سرداب في وضح النهار، وحاول جاهداً تلمّس طريقه. لم يجد لنفسه فكاكاً منه ولا مهرباً، فأذعن له.

بقي جاثماً في مكانه ويداه معقودتان بشدّة، وأخذ تضرّج وجنتيه يزداد أكثر فأكثر.

لم يتضرّع إلا من أجل شيء واحد فقط..

أن لا يموت، أن لا أحد منهم يموت! لا أحد منهم! أن يبقى الأب حياً، والأمّ وجميع الأولاد والمسنّون الذين في الريف. عدّهم كلهم؛ فرداً فرداً. كلّهم، كلّهم بدون استثناء! تضرّع أن لا يموت منهم أحد! أن تبقى الأمور كما هي. أن.. أن لا يتغيّر أيّ شيء!

كان جُماع ولعه بالحياة يعادل رغبته في ألا تتوقّف. لم يطلب مغانم تتعدّى هذه الحدود. ليس سوى نعمة الحياة، وللأشياء الأخرى أن تتغيّر وتتبدّل كما يحلو لها، فتغيّرها لا يهمّ، لا يمكن تفاديه.

ألحّ في التأكيد على أنه يمكن الحياةَ نفسها أن تسير وفق هواها. لجّ،

ليبيّن كم أن ذلك لا يهمّ. فبتلك الطريقة يستطيع التيقّن من أنه سيحصل على مبتغاه، ذاك الذي عنى له كلّ شيء.

غاب في تهويم جزئي. أمعن فكره في المُسميات التي ذكرها إلى أن رأى صورتها، وأبقاها حيّة بطريقة ما. ابتهل وابتهل راجياً أن يبقى كلّ شيء على حاله؛ أن يستمرّ بدون توقّف؛ أن يجيء الشتاء في وقته، أن يعود الصيف في دورته الفصلية المعهودة، أن تمضي الحياة وتمضي.. وأن.. أن يبقى هو والآخرون فيها..

جثا ساكناً يُضرم في صدره النشوة. ألحف في احتدامه وتوقّده حتى امتلأ بها، وحتى غدا رجعها داخله مثل ترتيلة للحياة نفسها. ترتيلة غريبة، لم تكتمل لتصبح أغنية جذلة. إنما بقيت ترتيلة تقتصر على تعداد الأشياء فقط، تستميت في التشبّث بالأشياء.

في الفسحة أمامه واصل المطر انهماره وخضّل الشجرة القزمة والطحالب ذات الاصفرار الكالح. وحيث هو قابع على الحجر يتضرّع في الظلمة الجزئية، عمّ سكون كبير وقُتمة كقُتمة المساء، وبدا كل شيء مهيباً بطريقته الخاصّة. لم يتقلقل، ولم يتحرّك فيه شيء ولا حتى شفتيه. لا شيء سوى الوجنتين المتوهّجتين والأصابع المعقودة التي ضغطها معاً بشدّة.

بعد فراغه من الصلاة نهض على عجل. تنفّس الصعداء وكأنه سُرَّ بانتهاء المهمّة. مسح ركبتيه الرطبتين، قفز فوق حزمة حشيش، ثم فوق أخرى وأخرى. فقد عرف طريقه هناك جيّداً، ولا شكّ أن حسن طالعه هو ما يسّر له إمكانية التنقّل فوق العشب، لأنه كان يوماً غزير المطر بحقّ. حوله، تشعّبت أماليد التنّوب مُشبعة بالمطر الذي تجمّعت حباته كاللؤلؤ بين إبرها، وانتصب الدردار مفرّعاً أغصانه لدنة وملساء. وفي الأركان الظليلة حيث احتفظ شجر القضبان ببعض أوراقه لاحت الأشجار أشبه بألسنة لهب صفراء، وبانَ كلّ من الخلنج والطحالب كما لو أنهما يحترقان أيضاً بما خالطهما من ألوان نارية.

نعم.. إنه لمن البديع حقاً أن يحيا المرء، ولو لوقت قصير فقط! وهو يعلم أنه لن يموت في لحظته تلك.. ليس في يومه ذاك.. وليس في الغد.. لا.. ليس بعد أن صلّى وابتهل ليبقى حياً. بل وإن أشجار القضبان وعساليج العلّيق الواطئة والخلنج المزهر وقفت مرحّبة به جميعها، وحيّته قائلة: يومك سعيد أيها الغلام، أنت حيّ وتمشي هنا، فماذا تنشد بعد؟

وثب متتبعاً رقع الحشيش كفرخ عصفور. رمق الأشجار. تهيّأ له

أنه سمع صوتاً.. سنجاب ربما؟! هزّ غصن شجرة تنّوب وترك الماء يترشش على العلّيق، هزهز عدّة أغصان أخرى فوق ذلك العلّيق الذي سيأتي ويقطفه ذات يوم. ارتقى الدرب إلى خطّ السكّة. مضى قدماً بخطوات مستعجلة. وسلكت معه قطرات الماء على أسلاك الهاتف الاتجاه نفسه؛ فهي أيضاً نشدت طريقها إلى بيوتها.

رفع بصره متأملاً قمم الأشجار والغيوم في السماء.. لاحظ أن الجوّ قد تحسّن، وبدأ هديل الحمام يتصاعد من الغابة، واسترجعت الطيور الأخرى حماستها للشقشقة والتغريد.

مدّ يداً إلى الأمام.. أما زالت تمطر؟

لا، حتى المطر توقّف. ومع توقّفه فرشت السماء نفسها واهنة وغير متناسقة، كأنها مستعدّة لتنفتح ثانية عندما يحين الوقت، وحطّت العصافير على الأسلاك وانهمكت تنفض عن أجسامها الماء.

نعم.. إن الكون يتجلّى دائماً على النحو الذي يرومه. وبطريقة أو بأخرى لا ينبغي التعويل عليه مهما حصل، فهو يمضي كما يحلو له. والأمنيات الخاصة التي قد تطاله لا جدوى منها مطلقاً. ما يهمّ حقاً، هو أن يبقى المرء حياً وأن يشارك فيه. وذلك ما فعله بالضبط.

واصل التقدّم. بلغ طرف الغابة. مرّ هناك بمستودعين يحفظ فيهما

تجارُ الحديدِ البارودَ والديناميت. فكّر في الضجيج المدوّي الذي يمكن أن يحدث إن انفجرا. وصل إلى العراء. لا، لم تعد الريح على فظاعتها السابقة. ومن على الرابية بدت معالم جميع الاتجاهات جلية. انتهى إلى المخازن، ومنها إلى مشهد المحطة الحيّ والحيوي؛ محركات مختلفة تغيّر مساراتها هنا وهناك، تصفر وتنفث الدخان. قاطرتا السكة الضيقة الصغيرتان تسقسقان بيأس كفرخي طائر، تدوران حول أسطواناتهما، ترغيان وتزبدان وتدفعان عربات الرحلات المسائية. قطارات السكّة العريضة تصعّد دخانها تجاه السماء بفخامة. رجال التحويل المتعلّقون بالشاحنات وعربات السلع يصفّقون ويلوّحون. محرّك يجرّ خلفه خمس مركبات مكشوفة محمّلة بالتوت. ومحرّك آخر يتقدّم صفاً طويلاً من عربات أبقار علا خوارها.

سلك طريقه بحذر بين القطارات، وخطا فوق المسارات عندما تأكّد أنها آمنة. حيّا رجال الإطفاء والسائقين وعمال التحويل وصبيان كبح الفرامل وهم في طريقهم بالقناديل إلى القطارات. فكّر في أمر وآخر وغمرته سعادة جمّة..

من أين جاءته تلك الخواطر؟ كلّ هواجسه عن الموت؟ لا.. عرف

أنه لن يموت! موته لم يكن أكثر حتمية من موت الآخريـــن. ولـن يحدث ذلك قبل وقت طويل، سواء له أو لـــهم! مـا عليـهم إلا أن يتأقلموا مع هذه الفكرة. لقد تجاوز تلك الهواجس، وما عاد قلبه مثقلاً بها. وها قد رجع ليلتحم بالآخرين.

جاء الناس وراحوا على طول الرصيف وهم يحملـون حقائبـهم، وقدمت العجائز مهرولات ظنّاً منـهن أن الوقـت داهمـهنّ. قـرع

أولسون جرس النداء الأول. وساق كارلسون عربة الأمتعة وزعق بالناس في طريقه. أما رجل الإطفاء فأضاء القناديل عند مقدّمة محرّك القطار استعداداً للارتحال في قلب الدنيا.

يمّم آندرز درج المطعم ليصعد إلى البيت. بلغه من مقهى الدرجة الثالثة شجار زوجين مخمورين أوشك القطار أن يفوتهما. ولكن الفناء وما فيه من أكواخ حطب كان في ذلك الحين غارقاً في السكون. دبّ متلمّساً طريقه على الدرج فالرواق المعتم. وقف خارج باب المطبخ وأرهف السمع.. لا.. لم يسمع أحداً يتهامس هناك. علّق سترته الندية في الظلمة وانسلّ إلى الداخل. وجد الأمّ تحضّر العشاء. دردشا قليلاً، واستنتج أنها حسبته قد أمضى بعض الوقت في الحديقة. بدا مرحاً وسعيداً، تحدّث عن بحّارة الصباح، وعن رمية غوستاف الأخيرة في قاعة البولينغ قبل إغلاقها. راقب الأمّ تتحرّك هادئة ومطمئنة، مُطوّقةً بالنور الذي تنشره حولها دائماً. رأى أنها مُفرطة في جدّيتها. ثم جاء الأب وبقية الأولاد، وتناولوا العشاء. وبعدئذٍ، أُضيء المصباح في الغرفة، وقعد الأب والأمّ عند الطاولة واستغرقا في قراءة كلام الربّ. وفي تلك الأثناء انهمكت أخواته في تحضير الأسرّة بهدوء، وتهامسن بأصوات لا تكاد تُسمع.

تكوّم وحيداً عند النافذة، ومن وراء الظلام، خبط المطرُ الذي عـلد إلى الهطول على الشبابيك. ونعقت القطارات الأخيرة، ثـم انطلقـت مخلّفةً قبس نارها يصعّد إلى صفحة السماء. وفي داخل البيت، أطبق سكون تامّ وجمود. لا شيء سوى ارتعاش شفتي الأمّ أثناء القـراءة، ورجع أنفاسها وهي تتنهّد بين تارة وتارة.

هذا جعل صدره ينقبض، شعر كما.. كما لو أنها تحتاج إلـى مـن يغيثها، كما لو أنها تشكو من الوحدة.

يا لذلك البيت.. كم كان كلّ شيء فيه ثقيل الوطأة على الجميع..

ذات صباح، لم تأتهم صفيحة الحليب بالطريقة المعتادة، بل حملتها إليهم الجدّة التي قصدت البلدة بثيابها الرسمية ومنديلها القديم الفاخر. وما إن توقّف القطار حتى ترجّلت منه والصفيحة بيدها. ثم سعت إلى تجاوز المسارات وهي تتلفّت حولها بحذر، وما لبثت أن أصبحت إزاء المطعم الذي اتكأت النادلات على نوافذه بانتظار الزبائن. وفي طريقها، أومأت برأسها محيّية أولئك الذين التقتهم.

بدت الجدّة في البلدة هزيلة ضئيلة الحجم. كان ثوبها أسود اللون، ضارباً إلى الرمادي بين طياته بسبب القِدم لا الاستعمال. يبلغ طوله قدميها ويُخفيهما، لكن غلظة قماشه حالت دون اختلاج تنورته أثناء المشي. أما منديلها الحريري بوروده المتداخلة في نسيجه، والذي تلقّته هدية في زفافها، فغطّت به رأسها. حجمه الكبير كاد يخفي

وجهها، وأطرافه تدلّت على كتفيها، ومن فوق عقدته برزت ذقنها الدقيقة المُسنّة. لم تضع عليها معطفاً، واستعاضت عنه بشالٍ بُنّي لفّته حول خصرها وربطته من الخلف. وعلى الرغم من أنهم كانوا في فصل الشتاء بجوّه القارس وأرضه الزلقة، ومع أن الشال عوّق حركتها قليلاً، مشت بليونة لا تتأتى لامرأة في سنّها. رفعت بصرها إلى الأبراج والقباب على سطح المبنى. عاينت الشرفات والكوى المتدثّرة بالثلج. لا، لم تلمح أحداً وراء الشبابيك الصغيرة فوق المقهى الشعبي، إلا أنها تعلم أن حضورها ليس متوقعاً. اضطرت إلى الخوض في الثلج الذي تساقط ليلاً وتجمّع عند البوابة. وفي الفناء المفعم برائحة الجعة، وجدت مدير المطعم وغوستاف يجرفان الثلج، فسلّمت عليهما ثم مضت إلى المدخل المسقف فالدرج. وعندما قرعت باب المطبخ، فتحه لها أصغر أهل البيت سنّاً.

ألفتهم يغتسلون استعداداً للذهاب إلى المدرسة، والأم تطهو لهم العصيدة.

لا، لا أحد عرف شيئاً عن سبب زيارتها المفاجئة.

"باركك الله يا صغاري،" قالت وهي تقعد وقد نال منها التعب قليلاً، "جئتكم بالحليب، وفي الوقت المناسب أيضاً، فأنتم كما أرى

ستتناولون العصيدة."

ساعدتها الأمّ على خلع الشال. وفي الكرسي، بدت بِنطاقها الصوفيّ المشدود والمتغضّن عند صدرها ناحلة جداً. نُزع منديلها أيضاً، فأشرق الشعر الأبيض الناعم، وكذلك العينان الطيبتان الغائرتان عميقاً في محجريهما، كما هو الحال مع المُسنّين.

أوه نعم، الجميع هناك أرسل لهم معها التحيّات، وهم كلّهم بخير والحمد لله. الخال إيميل ما زال كعادته يصطحب الثيران ويذهب إلى الغابة. يا لذلك المسكين كم يكدح ويشقى، فالأمور لا تتيسر كثيراً عندما لا يمتلك المرء حصاناً. الجدّ سليم ومعافى، وحليب الأبقار جيّد، ولديهم بعد كمية وافرة من المؤونة. نعم.. نعم، لقد شملهم الله برحمته وكرمه. وسوف يذبحون خنزيراً في الأسبوع القادم، وقد ذكروا هذا في وريقة أُرسِلت مع الحليب قبل يومين.

إنما.. ما الذي جاء بالجدّة إلى البلدة هكذا، وبدون أن يُعلِمهم أحد بقدومها؟

الحكاية وما فيها أنهم اعتقدوا في الريف أن عليها أن تأتي. أما هي فعارضت الفكرة لأنها لم تظنّها ضرورية. كلّ ما في الأمر أنها في الآونة الأخيرة شعرت بالإرهاق. لا، لا شيء معيّن، ومع ذلك قالوا

إنه يجدر بها استشارة الطبيب. هذا ما ارتأوه طبعاً، وهو لا يعني أن ثمّة حاجة ملحّة إليه.

قعدت الأم قريباً منها وأمسكت يدها. ووقف الجميع يتأملونها والصمت يُخيّم عليهم. رأوا أنها كما عهدوها. ها.. حسناً..لعلها لاحت أكثر ضموراً من السابق، وربما بوجه أشدّ هزالاً من ذي قبل! ولكن، أليس هذا ما بدت عليه دائماً؟ وماذا عن عينيها؟ هل ألفوهما غائرتين جداً؟ ولكن، أليس هذا شأنهما مع المسنّين؟

لا..لا.. تهيأ لهم أن شيئاً فيها لم يتغير.

لكن الأم لازمت مكانها. ربّتت عليها، استوضحتها عن الأمر، وأين تحسّ بالألم.

آه نعم.. لا أكثر من أنها شعرت بالتكدّر. وأصبح التعب ينال منها بسرعة أثناء العمل، مما جعله يُنجز ببطء. إلا أنها لم تشكُ من آلام معيّنة، لا شيء يستحق الذكر. آ.. حسناً، ربما بعض التوعّك. لا.. ليس مهماً. كلّ ما في الأمر أنهم أرادوا منها في البيت أن تستشير الطبيب. وقد تتمكّن من الحصول على دواء يعيد إليها نشاطها.

أخلدت الجدّة إلى الصمت وهي تشابك يديها وترنو إلى الذرية المتحدّرة منها. تأملتهم. فكّرت في نهج حياتهم في البلدة. ابتسمت

لهم، ولكن ربما ليس كما اعتادت أن تفعل. وبقيت الأمّ إلى جانبها. حافظت على رزانتها وهي تستمع إليها، غير أنها لم ترفع عينيها عنها قطّ. آنذاك، بدتا حيث هما متجاورتان كالأختين؛ متشابهتين جداً، متماثلتين في الشحوب والشعر الهشّ، في التقاسيم الدقيقة الوديعة، وفي البُنية المتينة والعود الصلب. طفقت الأمّ تدلّك اليد الهرمة إنما بطريقة خاطفة، كأنها لم تشأ إظهار عاطفتها أمام الأطفال. ثم أوضحت لهم أن الجدّة كبيرة في السنّ، وأنها موشكة أن تبلغ الثامنة والسبعين من العمر. وبعض الأمور لا يمكن أن تبقى على حالها. وفي النهاية أعلنت أنهما ستقصدان الطبيب حالما يفتح عيادته.

نعم.. هذا ما ستفعلانه. وستتحسّن صحّة الجدّة وتتعافى ثانية.

"إن الأمر يعود إلى مشيئة الربّ،" قالت العجوز.

تفرّس الأولاد في الجدّة والأمّ واجمين، وراعهم الكدر الذي اعترى أمّهم. وبمنأى عنهم جميعاً وقف آندرز. شاحباً تسمّر يحملق في الجدّة، وكأنه يريد لعينيه أن تنفذا خلالها. لم يقولوا شيئاً كثيراً بعد ذلك. وتشاغلت البنات بالبحث عن شيء يرتبّنه في المطبخ. أعددن الصحون بالعصيدة لأصغر اثنين من الأولاد، لأن عليهما

الانطلاق إلى المدرسة فوراً. اضطرّ آندرز إلى الاقتراب من الطاولة ليأكل. لم يستطع وضع شيء في جوفه. هرع إلى إلقاء التحيّة. انسلّ خلال الباب وهو يرمق العجوز بنظرة مُسهبة. ثم سلك وأخته الطريق إلى المدرسة. خاضا في الثلج خلال الزمهرير والهدوء المصطنع. تبدّت البلدة لهما مقفرة. بل ولاحت خالية حتى من آثار أقدام تقود إلى عتبات أبواب بيوتها، وكأنها هُجرت من قاطنيها. حثّا السير قدماً يتبع أحدهما الآخر بدون أن ينبسا ببنت شفة.

دقّت ساعة البرج. أجفل آندرز. ظنّ أنهم بدأوا يقرعون أجراس الكنيسة!

لا.. لم تكن سوى دقّة نصف الساعة.

بعد هنيهة، أخذت أصوات الأطفال في الشوارع الأخرى تتعالى، ثم ما لبثوا أن ظهروا في جماعات وهم يتصايحون ويتدافعون. قصد الجميع باحة الكنيسة، اهتدوا إلى زلاجاتهم تحت الثلج، استنهضوا سرعة مناسبة، واندفعوا في صفّ طويل، يتعثّرون تارة ويترنّحون أخرى. وبقي آندرز وأخته في المؤخّرة. قاما بدورة أو دورتين من غير أن يشاركا في السباق، وكأنهما لا ينتميان للآخرين.

في المدرسة أدرك آندرز أن عليه قضاء ساعتين من الدرس قبل الاستراحة. فقبع محاولاً متابعة الكلمات التي قرأوها، محاولاً التعلّق بها حتى لا يبقى وحيداً، محاولاً الالتحام بالبقية. لكنه عجز عن التركيز جيداً. وبينما أنصت متوتراً إلى كلّ ما قيل، لم يفكّر في شيء إلا كيف أنه قاعد يستمع. مما عنى طبعاً أنه لم يسمع شيئاً على الإطلاق..

عن أي شيء انبروا يتحدّثون يا ترى؟ إن كلماتهم لم تنفك تصطدم بجدار وترتدّ إلى الجدار المواجه له، وليس فيها أيّ معنى. ها، حسناً لقد انهمكوا في التحدّث عن الربّ.. هناك أيضاً؟! هناك، وفي البيت! في كلّ مكان! لكن ما كنه الربّ؟ وما الذي عناه كلامهم ذاك كلّه؟ هل اعتقدوا أن ذلك الكلام يساعدهم على فهمه؟

لا.. هو لم يعد يعبأ كثيراً بالربّ. ليس كما اعتاد أن يفعل من قبل. كما أنه ما سبق له أن فهمه حقّ الفهم.. على الرغم من أن هذا ليس بالمهم. مع ذلك تمنّى لو أن في استطاعته فقط أن يجري إلى الغابة.. لو أن في استطاعته أن يحصل على ساعة فراغ ويهرع إلى هناك بأسرع ما يمكنه.. أن يطلق ساقيه للريح قبل أن يفوت الأوان.. يعدو ويعدو حتى يصل مجهداً تماماً.. لاهثاً وهائجاً.. لينهار من

فوره على الحجر.. تمنّى لو أنه ينجح في التملّص، لو يزعم أنه مضطر إلى المغادرة، لو يتحجّج بأن لديه شيئاً أهمّ بكثير من أيّ شيء آخر، وأن عليه بكلّ بساطة أن يهبّ من مكانه وينطلق..!!

لا.. لا أحد كان سيتفهّم..

بل ماذا أمكنه أن يقول؟

إنه ينبغي عليه الإسراع إلى الغابة؟! من سيفهم هذا؟!

من سيفهم أن على المرء أن يتوسّل ويتضرّع – وهو يلتهب بالحماسة الإيجابية – على حجر؟! يتضرّع ليبقوا أحياء.. ليبقوا أحياء...!

استحكم فيه الاضطراب أيّما استحكام. لم يشعر بما جرى حوله. لم يلاحظ الفاصل الزمني بين الحصص. كيف دخلوا الصفّ من جديد، كيف جاءهم معلّم آخر، وكيف بدأوا يتحدّثون عن شيء آخر...!

آه.. نعم.. تحدّثوا عن أشياء كثيرة مختلفة، وكأنهم يجهلون أنها جميعها تؤدي إلى نهاية واحدة. شغلوا أذهانهم طوال الوقت بالتفكير في أمر وآخر، ولكن ليس في حقيقة أنهم سيموتون.. سيموتون..

قُرِع الجرس أخيراً وخرج التلاميذ. تشاجروا وزعقوا في الردهة.

وفي الملعب تراشقوا بكرات الثلج، وخاضوا معركتهم الأخيرة قبل موعد الغداء. ومع انتهاء الدوام دبّ آندرز وأخته إلى البيت صامتيْن. في البداية، لم يعرفا أيجدر بهما الإسراع أم التمهّل. ثم وجدا نفسيهما في نهاية الطريق يجريان. لكنهما سرعان ما اكتشفا أن الجدّة ما زالت عند الطبيب، وليس هناك سوى الأولاد وقد لبثوا يترقّبون.

تسلّق آندرز إلى النافذة ليرصد الطريق. ربض وكأنه جاهز للانقضاض في أيّ لحظة. وإذ كَمَنَ ينتظر خفق قلبه، واحتدمت عيناه كما لو أنه محموم.

أخيراً ظهرت الأمّ والجدّة. رآهما آندرز تقطعان الممرّ بتؤدة وهدوء. الاثنتان تبدوان كالعجائز، الاثنتان تضعان منديلاً، لكن الأمّ ترتدي فوق ثوبها عباءة بأربطة. سلّمتا على عامل في المحطّة، وعلى طاهٍ يستند إلى نافذة مطبخ المطعم، ثم اختفتا في الردهة. وما إن دخلتا البيت حتى هبّ جميع الأولاد للترحيب بهما. قعدتا وبدأتا تسردان تفاصيل زيارة الطبيب.

لا شيء يمكن عمله للجدّة. لا.. لقد فات الأوان الآن. فحصها الطبيب بعناية، وعاملها بلطف ومودّة بالغيْن. ولكن لا شيء

سيساعدها.. إنه السرطان.. وهو مُستشرٍ في جسمها..

"إيه.. إيه.." غمغمت العجوز، "إنها مشيئة الربّ."

وبالرغم من أن الأمّ توّلت دفّة الحديث معظم الوقت، لم تتوان الجدّة في إضافة كلمة أو تعليق ما بين تارة وتارة.

"إن لطف الطبيب ودماثته في التعامل معي لا يقدّران بثمن،" أوضحت الجدّة في النهاية، لأنها لطالما سمعت أنه يعامل الناس بفظاظة، مما جعل معظمهم يتردّد في الذهاب إليه. لكن الوضع مختلف معها، فقد تفرّغ لها، وكلّمها بمودّة وكأنه يكلّم طفلاً. ولم يأخذ منها أجراً على المعاينة، فقط قال إن وقتها بات على الأرجح قصيراً. واعتبرت تصرّفه هذا نبيلاً، لأن كلفة معاينته باهظة نظراً إلى براعته.. نعم.. نعم.. شخص مميز بالفعل..

تحلّق الأولاد حولهما ووقفوا ينشجون. وخلفهم، بمعزل عنهم قليلاً، لبد آندرز وحده مشرئب العنق، وجهه المتقبّض يعلوه شحوب مخيف، وعيناه تتفرّسان في العجوز. أما الأمّ والجدّة اللتان استقرّتا تحت الشبابيك المجلّدة، فلم يظهر عليهما ما يدلّ على ارتياعهما من الخبر، لولا أن سيماء الأمّ تغيّرت على نحو ما، وكأنها ما عادت حاضرة بينهم. ومع ذلك لم تتوقّف عن تدليك يد الجدّة، والتدقيق في

التفاصيل التي تخصّها؛ تعدّل منديلها مرّة، وتسوّي طيّة في تنورتها مرّة أخرى. وبدا الأمر كما لو أن شيئاً في العلاقة بين الاثنتين قد تغيّر، وجعل الجدّة أشبه بطفلة تمسكها أمّها الراشدة بيدها، وتتولّى رعايتها. وإذ بقيت العجوز مستكينة في مكانها، لزمت جانب

الصمت. في لحظة يعتريها ذهول من المصاب الذي ألمّ بها، وفي لحظات يستحوذ عليها الاستهتار به، وكأنه مجرد حدث سطحي عارض. تشاغلت بتمليس المنديل المفرود على حضنها؛ هدية الزفاف الفاخرة بورودها المضغوطة. ثم فكّرت في أن الأولاد يقفون حولها وهم يتساءلون عن المدّة المتبقّية لها معهم.. وقالت إنها سألت الطبيب لأنها أرادت أن تعرف ماذا ينتظرها، لتستعدّ عندما تحين ساعتها. لكنه أشاح بوجهه عنها وأجاب إنه لا يعلم. ففهمت ما عناه جيداً وندمت على السؤال.

"لا.. قلت للطبيب، هذا أمر نجهله تماماً."

بدأت الفترة الأكثر نشاطاً في المحطة. وتصاعد معها صوت القطارات وهي تتحوّل من خطّ إلى آخر، وأخذ الدخان يكنس النوافذ مذيباً الثلج. حينذاك اقترحت الأمّ أن يتناولوا شيئاً من القهوة.

"إي، لا بأس بهذا،" قالت العجوز.

تمّ تكليف البنات بإعداد القهوة. وعندما قعد الجميع حول الطاولة لاحتسائها، لم يتجاوز ما قالوه بضع كلمات. وبينما جثم الأطفال يزفرون ووجوههم منكبّة على فناجيهم، اضطروا بين تارة وتارة إلى إخراج محارمهم، ونشجوا خلسة. أما آندرز فلم يرغب في أيّ شيء.

زرع الغرفة ذهاباً وإياباً، انسلّ واندسّ بينهم، داس فوق الحصر ميمماً الشبابيك، ثم الباب. وجهه ممتقع، وعيناه خامدتان تماماً وكأن نورهما قد انطفأ. في لحظة ما، تصدّت الجدّة لنظرته الهامدة، وأومأت برأسها وهي تمنحه ابتسامة هزيلة. إلا أن شيئاً في ملامح وجهه لم يتغيّر، ولم يجرؤ على النظر في عينيها مباشرة.

حينما أنهوا احتساء القهوة قامت العجوز..

"حان وقت رجوعي إلى البيت،" قالت الجدّة. "عِدوني أن تأتوا لزيارتي يا صغاري الأحباء."

احتدم الموقف آنذاك، وعجز الأطفال عن حبس دموعهم. حتى الأم ترقرق الماء في عينيها، لكنها لم تبك.

"طبعاً يا أمّي سنأتي،" أجابت الأم، "أكثر من السابق."

"إيه.. يُسعدني ألاّ تنسونا،" ردّت العجوز.

كانت هذه أول مرّة يقترب فيها الموت من بيتهم، ولذلك ران عليهم بشدّة. أدركوا لحظتها مدى عمق انتمائهم بعضهم لبعض. ولم يستوعبوا فكرة أن واحداً منهم سيرحل عنهم، أنهم سيفتقدونه،أنه لن يستمرّ في البقاء بينهم أكثر مما بقي. تدفّقت كلّ الحرارة التي يحملونها داخلهم، فشعروا كما لم يشعروا من قبل أنهم كيان واحد.

وهذا ساعدهم على تحمّل الأسى وقوّاهم.

آندرز وحده وقف بعيداً عنهم وكأنه خارج نطاق الشلال الدافئ الذي انساب خلالهم. انسلّ خلسة إلى وسط الغرفة الأخرى وراقبهم من هناك. لا دمعة واحدة في عينيه. رأى إخوته يتجمّعون حول العجوز، ويربّتون عليها بطريقة خرقاء. أما هو فلم يفعل شيئاً.. وكأنه.. كأنه لم يحبّها بقدر ما أحبّوها.

"لدي مهمة أو اثنتان في البلدة،" قالت العجوز بينما ساعدوها على وضع الشال وربطه وراء ظهرها. بعض العزقات من عند تاجر الحديد لمِقطَع الحنطة. كمية من سعوط "لندغرين" للخال إيميل، فهو يقول إنه يحبّ هذا النوع أكثر من غيره. وينبغي أيضاً أن تشتري نصف كيلو من البُنّ استعداداً لذبح الخنزير في الأسبوع القادم.

طلبت منها الأمّ وعداً بأن لا تشارك في تلك المناسبة، فقد لا تتحمّل صحتها الجوّ البارد.

"ولكنك تعلمين جيداً أنني مضطرة إلى ذلك،" أجابت الجدّة، "لم يحن وقت الرأفة بي بعد."

ولما بلغت الباب أردفت..

"لا أدري كيف سيتدبّرون أمرهم بعد موتي. إن الحصول على

أُجَراء من الخارج يكلّف كثيراً، ولا ينفع معنا مطلقاً."

سوّت منديلها على رأسها وربطته.

"حسناً، سأرحل الآن، وشكراً لكم على كلّ شيء."

وبذلك مضت وصفيحة الحليب بيدها.

مكتبة
t.me/t_pdf

عاشت الجدّة لسنة أخرى.

في الصيف، تمكّنت من المساعدة قليلاً في صنع التبن وفي حصاد الجاودار. ثم أصبح لزاماً عليها تعوّد السرير. داوموا على زيارتها بين رحلات القطارات ليطمئنوا عليها. لكن آندرز عزف عن مرافقتهم، وتحجّج بهذا العذر أو ذاك. وكثيراً ما سمحوا له بالبقاء في البيت. إلا أن الذهاب تحتّم عليه بين وقت وآخر. وإذ فعل هذا في إحدى المرّات، غدا أكثر فأكثر امتقاعاً كلما ازدادوا اقتراباً من المزرعة. وبعد أن دخلوا واضطر إلى مصافحة يدها، بدا وكأنه يقوم بذلك مرغماً، وتحاشى تقريباً النظر إليها، على الأقلّ ليس في عينيها. أما الآخرون فتصرّفوا كالمعتاد، لأنهم رفضوا الإقرار بأن شيئاً ليس على ما يرام، ولم يبغوا سوى أن يعاملوها بأكبر قدر ممكن من اللطف.

لم يستطع مجاراتهم، فهي بالنسبة إليه انتقلت من حال إلى حال، كما لو أنها ماتت وانتهى أمرها. ضبطها تتفرّس فيه مطولاً، وكأن الشكوك ساورتها في أنه ليس مولعاً بها بقدر ما اعتقدت. وما إن سنحت له الفرصة حتى سارع إلى التسلّل خارجاً، وراح يزرع الحديقة جيئة وذهاباً.

لم يستشف للأزهار عبيراً. ولا زهرة واحدة من أزهار جدّته المنتشرة في كلّ مكان. تسكّع قرب شجيرات الكشمش. تذكّر كيف اعتاد أن يستلقي أسفل منها تحت الشمس الوهّاجة، ثم يلمح الجدّة تخرج وتقف عند العتبة. نظر داخل العريشة، حيث درجت العجوز على القعود لتقشير البازلا، وجد الموضع مجرّد تجويف كبير فارغ. أدرك أن كلّ شيء قد لحقه التغيير. لا شيء بقي على حاله السابق. نعم، الشمس واصلت إرسال أشعتها، كعهدها عندما ترسل أشعتها في منتصف النهار، في منتصف الصيف، لكن كلّ شيء هناك وُسِم جوراً، وهذا لم يكن مُنصِفاً.

انسلّ عبر وشيع الزعرور، ثم وقف يعاين الريف. تبدّى له خاوياً تماماً. نعم، أبصر الحقول التي انبسطت أمام ناظريه، وكذلك الأبنية الحجرية المنفصل بعضها عن بعض بالسياجات، والمزارع المبعثرة

في كلّ اتجاه، هناك.. وهناك.. وهناك. لكنها جميعها لاحت مقفرة. وبعيداً، حيث ترامت الأراضي السبخيّة، كلّ ما فيها أُبيدَ، لم يتخلّف عنه أثر، كما لو أن يداً مدمّرة مرّت فوقها.. كلّ شيء.. كلّ شيء هناك وُسِم جوراً.. وهذا لم يكن مُنصِفاً.

خرج أحد ما وناداه. طأطأ رأسه وتوارى خلف الوشيع.

تسلّل إلى الحظائر، نظر من خلال النافذة الصغيرة المُطلّة على مربط الأبقار، ذلك المكان الذي اعتادت الجدّة أن تقصده وقت الحلب. آه كم عبق في الماضي برائحة طيّبة أنيسة ودافئة. خصوصاً في أمسيات الشتاء، والمرء آت من البرد في الخارج. هناك.. هناك لطالما رآها قاعدة وجبهتها تستند على البقرة التي تحلبها، وإن حدث وجاء أحدهم، لا تسمع وقع خطواته بسبب الرغاء في الدلو.

تجوّل وراء الحظائر. قصد رقعة قيقب وعرعر، طاف بها. ثم انسلّ وحام حول البيت، تفرّس في نوافذ الغرفة التي يعرف أن الجميع فيها. وأخيراً، عندما حان الوقت ليغادروا حتى يلحقوا بالقطار، دخل وودّعها مع الآخرين. حينئذٍ، عادت ونظرت إليه بعينين متفحّصتين، كأنها حاولت التثبّت من أنه لم يكترث لأمرها بقدر الآخرين.

كثيراً ما جرى الأمر على هذا النحو، وكثيراً ما عذّبه. على الأخصّ تلك الحادثة التي لم ينفكّ يتذكّرها.

فذات يوم في ذلك الصيف جاء وأمّه لعيادتها. ولما وصلا إلى الممرّ وجدا العجوز تقتلع بضعة رؤوس بطاطس من الأرض للغداء. شاهداها جاثمة على الأرض لأن الألم أعجزها عن الانحناء. وعندما انتهت لم تتمكّن من النهوض ثانية. فهرع وأمّه ليسنداها. في البداية، واجهت صعوبة في الوقوف وكأن شيئاً ما يرغمها على التخاذل أرضاً مرّة أخرى، ثم غدت عيناها كالزجاج كما لو أنها ما عادت تراهما. أصابته الرعدة، شعر أنه هو أيضاً على وشك أن ينهار، وعجز عن دعم نفسه، وعجز عن دعمها. لكن الأمّ سرعان ما تداركت الموقف، ونفضت عن العجوز التراب وساعدتها. يومها، هرب منهما بعيداً، اتكأ على جدار البيت وبكى. وتلك هي الحادثة الوحيدة التي أسعفه فيها البكاء.

كان هناك شيء غير بشري في خوفه من الموت.

هلعه مما أخذ يحدث لها ابتلع كلّ شيء آخر. فافتقر، كما يبدو، إلى المشاركة الوجدانية. رآها باستمرار أمام عينيه. يومياً، من الصباح إلى المساء. إلا أنه على نحو ما لم يفكّر فيها هي، إنما في

حقيقة أنها ستموت. في الحقيقة المرعبة التي تجلّت في وجود شخص حيّ بينهم يموت. شخص تهيأ له أنه بات لا يعرف من هو. وإن حدث وفكّر فيها، استحضر الذكرى السابقة التي حملها عنها وتشبّث بها. ذكراها وهي حيّة، وهي ليست موشكة أن تطرق عتبة الموت. فقد شعر أنها ما عادت موجودة في وقته الراهن، أنها فارقت هذا العالم، غادرته، كفّت عن الانتماء إليه، وعليه، كلما فكّر فيها، أن يسترجع ذكراها.

نعم، كان هناك شيء قاسٍ في تعلّقه المسعور بالحياة..

شيء معادٍ للحياة نفسها.

خلال الشتاء، ومنذ أن أصبحت طريحة الفراش، اضمحلّت العجوز ببطء، وبدأت تفارقهم شيئاً فشيئاً. فقدت قدرتها على الرؤية بوضوح، وعجزت في معظم الأحيان عن متابعة أحاديثهم. وبالطبع، ما عادت مطّلعة على تطور الأعمال في المزرعة. وإن انبرت في بعض الأحيان تستفسر عن أمر وآخر، بدت وكأنها لا تستمع إليهم عندما يجيبونها. وفي إحدى الأمسيات، أرادت أن تعرف أين ترقد، ولما أُخبرت أنها في الغرفة الصغيرة الجانبية، دُهشت لأنها ظنّت الغرفة أكبر من ذلك بكثير.

هذه الأخبار، وأخرى مشابهة لها، سُطرت دائماً في ورقة الملاحظات المُرفقة بالحليب. ووصلتهم باكراً كلّ صباح من المزرعة. وغالباً ما تسلّموها مجلّدة بسبب قسوة ذلك الشتاء. وكثيراً ما اضطرّت الأمّ إلى النفخ عليها لتفتحها بدون أن تطمس كتابتها. وفي تلك الفترة ازداد تردّد الأمّ على المزرعة. ولما أوشكت النهاية أن تقترب مكثت هناك. وتولّت وأبوها الطاعن في السنّ السهر على العجوز المحتضرة. يجلس هو عند النافذة ويقرأ في الكتاب المقدّس، وتنهض هي بأعباء المريضة العاجزة؛ تدخل وتخرج على رؤوس أصابعها، وتنحني لتصغي إلى طلباتها المهموسة همساً، لأن الشيخ ما عاد يمكنه سماعها. مرّة، همست للأمّ أنها تستطيع سماعه عندما يقرأ. وبذلك داوم على القعود هناك وقرأ لها بصوت جهوري.

خارجاً، لم ينفكّ الثلج الغزير في ذلك الشتاء يتراكم عالياً إزاء النوافذ، وفي مناطق أخرى عريت الأرض، وقتل الصقيع العديد من أشجار الفاكهة.

في مساء أحد الأيام، ذهب جميع الأولاد إلى المزرعة ليودّعوا جدّتهم الوداع الأخيرة. لكنها لم تكد تميّز بينهم. وبعد أيام قليلة، كتبت الأمّ في وريقة الحليب تقول إن النهاية قد أزِفت. بالنسبة إلى

آندرز، حمل له هذا الخبرُ الفرجَ تقريباً. وقضى الأطفال يومهم وهم يتحدّثون عن الجدّة؛ عن اشتهارها بكذا وبكذا، وما قالت في مناسبة ما.. منذ وقت بعيد غالباً.. عن نهوضها الباكر جداً في الصباح.. عن براعتها في خبز قطع البسكوت على شكل ثمانية.. عن اعتنائها بأحواض الزهور.. بشتلات عود الصليب.. وعن تلك الحادثة في صباها عندما تاهت في الغابة، فارتدت سترتها الصوفية بالمقلوب لتستعيد حظّها.. عن كل شيء تقريباً. وشاركهم آندرز بلهفة، طوال الوقت. فهو أيضاً تذكّر، نعم.. الكثير. حكى وتذكّر، وتذكّر وحكى. وأينما وجدهم يتكلّمون، في المطبخ في الغرفة في أيّ مكان، انضمّ إليهم وهو يغلي حماسةً وعيناه تشعّان.. وكأنه بُعث حياً من جديد!

رجعت الأم إلى البيت خلال وقت قصير لتخيط ما تتطلّبه الجنازة. وأُوكِلَت بعض المهامّ للبنات والصبيين الكبيرين. وتمكّن آندرز الذي عُمّد في تلك السنة، من الحصول على حلّته السوداء قبل أنداده. خلّف لديه هذا إحساساً بالغرابة؛ فهو لم يسبق له أن امتلك شيئاً أسود. كما أن نظرات الناس، وحملقتهم في شارة الحداد حول قبعته أربكته. خصوصاً عندما خرجوا جميعهم معاً، بصحبة الأم أو بدونها، وكلّهم متّشحون بالسواد. فقد تفرّس فيهم المارّة، وتنحّوا

جانباً وهم يحيّونهم بطريقة خاصّة. وما لبث أن غدا مشيهم الجماعي في الطريق ثقيل الوطأة عليه، لأنه جعله يشعر بالاختلاف عن الآخرين.

باكراً صباح يوم الأحد شدّوا الرحال إلى المزرعة لحضور الجنازة. كانت الدرب إلى الباب وعند البوّابة مفروشة بالأغصان. لسعهم البرد القارس في الحديقة، فسارعوا إلى دخول البيت الذي عمّه الدفء. وهناك، اجتمعوا ببعض الناس الذين سبقوهم. معظمهم أشخاص كبار السنّ. الرجال منهم وقفوا يدفئون أيديهم عند الموقد المكشوف، حيث احترقت جذوع الصنوبر وطقطقت لافظة شواراتها على الأرض. والنساء كوّمن مناديلهن في أيديهن، وتبادلن التحيّات وتهامسن وهن يتلمّسن خطواتهن فوق الحصر بحذر ليحافظن على نظافة البيت. وما إن وصلت عائلة الفقيدة من البلدة؛ الأب والأمّ وجميع الأحفاد، حتى أطبق على الجميع صمت مهيب. وبدأ المعزّون يتقدّمون منهم ويصافحونهم باحترام، بدون أن ينبسوا بشيء أو ربما ببضع كلمات فقط. ولم يشذّ عنهم إلا رجل طويل القامة أحمر اللحية انتقل إلى المنطقة منذ سنوات قليلة، إذ وقف في وسط الغرفة وواساهم بصوت عالٍ.

أقبل المزيد والمزيد من الناس الذين تمّت دعوة معظمهم؛ منهم عجائز متدثّرات بالشالات ترجلّن من عربات توقّفت عند المبنى الفرعي، أو مشاة أغلبهم شيوخ تدفّقوا من مدخل الحديقة. وشُوهد أناس آخرون ممن افتقروا إلى وسائل النقل وهم يخوضون الطريق المؤدية إلى المزرعة. وبما أنهم في المزرعة أيضاً لم يمتلكوا حصاناً، استعاروا واحداً للجنازة. وما لبث أن أخذ المُعزّون يدخلون البيت واحداً تلو الآخر؛ ريفيات بلا أسنان طويلات نحيلات متدليات الأثداء تفوح ثيابهن بعرف النفتالين، ورجال من المزارع المجاورة بحلل فضفاضة. ولم يمض وقت قصير إلا وغصّ البيت بالخلق. وتردّد في الأسفل وقع خطوات مَن شغل منهم الغرف العلوية التي نُقل منها التفاح والبصل.

فُتِح باب الغرفة الجانبية بعد فترة قصيرة. فاجتاح البيت تيّار صقيعي، وتصاعد من الأرض شذا المُنظفات التي لم تتبخّر في الجوّ البارد، وهاجت رائحة الرطوبة من أغصان التنّوب المنشورة، لأن الثلج العالق بها لم يذب عنها نهائياً. عندئذٍ، احتشد الناس بوقار وبدأوا يتقدّمون ليودّعوا الفقيدة ويُلقوا عليها النظرة الأخيرة؛ عجائز مهتزات الرؤوس من الكبر عرفنها طوال عمرهن، زوجات

مزارعين شابات لا يتذكّرنها على نحو مخالف لما هي عليه في رقادها الأخير.. مُسنّة وشائبة، شيوخ راقصوها في المناسبات أيام شبابهم، ومزارعون من "بولسغارد" و"جوتاغران" جالسوا إيميل على فنجان قهوة ولفافة تبغ. لم يزاحم آندرز أحداً. اكتفى باستراق النظر من بين الأشخاص الذين وقفوا على مقربة منها. ولمح جزءاً من جبهة الجدّة وشيئاً من خصلات الشعر الناعم. ولمّا تنحّى أحدهم جانباً، ورأى الفم الفاغر، والفكّ المرتخي قليلاً، سرت الرعدة في أوصاله، فحشر نفسه وراء الآخرين حتى لا يبصر شيئاً. أما هيلج؛ شقيقه الكبير، فلم يبرح مكانه قربها، لأن موتها على نحو ما لم يفزعه. لم يذهله. ولطالما كان أشدّ إخوته تعلّقاً بها، وأكثرهم ملازمة لصحبتها. ساعدها دائماً في تنقيب التبن وتقليبه، وحشّ الأعشاب وجزّ الحشيش. وكثيراً ما تصيّد لها أسماك الفرخ والروش من النهر. أو اهتمّ بإفراغ الفخاخ صباحاً، ليعود إليها محمّلاً بالحنكليس قبل أن تستيقظ من نومها. ولأنه أحبّها حقاً، وقف عند موتها يبكيها بصمت وخشوع. وليس للمرء إلا أن يلاحظ أنه ينتمي إلى المزرعة أكثر من البلدة، وأن لا أحد فيهم بدا شبيها بالعائلة أكثر منه.

عندما همّ الرجال بوضع غطاء النعش تملّكت آندرز رغبة قوية

في أن يندفع نحو جدّته. استمهلهم الجدّ ليربّت على وجنة الفقيدة. وتهيّأ لآندرز أن تثبيت الغطاء استغرق منهم دهوراً. ولما انتهوا شعر بفظاعة الأمر.. فظاعة أنه وحده دونهم جميعاً لم يودّعها كما ينبغي. لكنه هدأ من روع نفسه وقد أدرك أن الأوان قد فات. ولاحظ أنه هو أيضاً قادر على البكاء مثل الآخرين.

بدأوا بعد ذلك بإنشاد إحدى الترانيم. وقام بافتتاحها جاكوب العجوز الموقّر ذو الشعر الأبيض كالثلج والمتدلّي على كتفيه. فقد قضى معظم حياته وكيلاً للكنيسة، وتولّى الإنشاد في مثل تلك المناسبات منذ وقت بعيد. لم يتهدّج صوته لكن البحّة تخللته. وما إن انتهى حتى حُمِل النعش إلى الخارج. هناك، وقفت الخيول الجامحة تدكّ الأرض بحوافرها أمام الزلاجات والرغبة في الانطلاق تحدوها. نهرها الرجال الذين اعتمروا قبعاتهم الرسمية، ولجموها حتى يتمّ وضع التابوت في العربة الأولى؛ العربة التي قادها صبي مزرعة "جوتاغران" لأن الحصان لهم. خارت الأبقار في الحظائر، ونقر الدجاج حبوب الشوفان تحت العرائش. وما لبث أن أصبح الجميع جاهزين للرحيل. أما الجدّ الذي حبسه التوعّك عن مرافقتهم، فوقف عند البوابة، ولوّح لهم طوال الفترة التي استطاع رؤيتهم

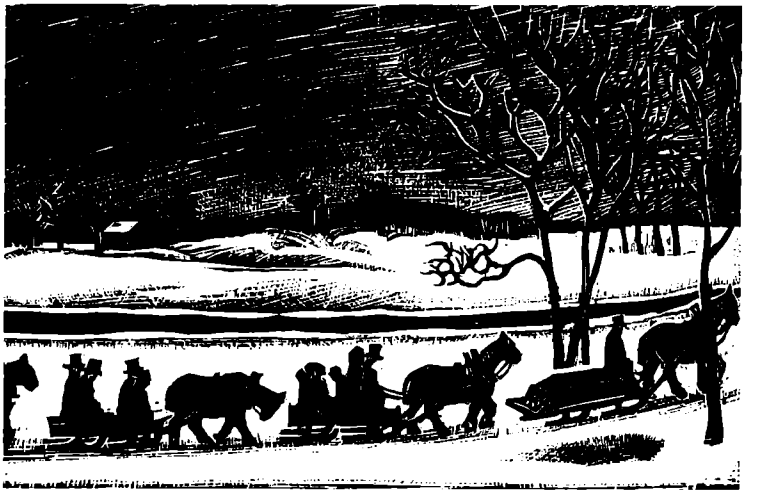

خلالها، واختتم الوداع الأخير بقوله..

"سألحق بك عمّا قريب يا ستينا!"

تتبعت الدرب إلى الكنيسة مسار النهر الذي لم يقتصر التجلّد على حافتيه فقط، بل شمل الأهوار أيضاً، لا بل الريف بأكمله. بدت المزارع قاحلة جرداء، كما تبدو دائماً في الشتاء، عندما تخلع الأشجار أثوابها التي ألِفتها العيون، وتقف كالمنبوذة. بالطبع رافق الجميع تقريباً موكب الجنازة، وتوزّعوا على العربات التي ظهرت

بصفّها الطويل أشبه بقافلة نقل. قافلة أثقلتها أحمالها حتى كادت تعجز عن جرّ نفسها قدماً. وبينما شقّت الخيول طريقها خلال الأرض العارية، قعد الركاب يتفرّجون على ما حولهم والمقاعد تهتزّ بهم. وفي الطليعة قبع صبي المزرعة على النعش وسط بعض الأزهار من البلدة.

حينما بان الموكب للكنيسة بدأ قرع الأجراس، فنفذت جلجلتها من شبابيك البرج المشرعة لتشمل المنطقة المجاورة بأسرها، والقفر، والقرى المفرّقة، وصولاً إلى المزارع في الغابة. وأينما تردّد صداها خلع الرجال قبّعاتهم وانحنت النساء، وفقاً لما جرت عليه الأعراف. وفي ضيعة متاخمة للأبرشية، عند نافذة أحد الأكواخ، تكوّمت عجوز ضئيلة الجسم وقد تدثرت بلفاحها لتتمكّن من فتح النافذة. كانت أكبر الجميع سناً في المنطقة؛ منكمشة منحنية الظهر ذات عينين بُنيّتين متوقّدتين، وشعر فاحم السواد لم تَشُبه خصلة بيضاء واحدة بالرغم من كبر سنها. وليست تلك العجوز سوى والدة الأب التي ربما جرى في عروقها دم "ولوني" وربما لا. لكنها في جميع الأحوال تميّزت بوجود شيء أجنبي فيها؛ فسمرتها لم تتأت لأحد آخر غيرها في المنطقة. كما أن سلوكها أرقى من سلوك الزوجات الريفيات،

مع أنها أفقر الجميع. وفي صباها قُيّض لها أن تتلقى القليل من العلم مع بنات النبلاء. وإذ قبعت هناك، أصاخت والكتاب المقدّس على ركبتيها، ونافذتها مشرعة لقرع النواقيس التي نعت الأمّ العجوز ستينا. ولما تناهت إليها أولى الدقات شابكت يديها، وأطلّت برأسها الصغير الغريب من النافذة. ففزعت من مرآها العصافير الواقفة على حزمة الحصيد المربوطة إلى رفّ النافذة، ونفرت منتشرة في الفضاء.

توقّف الموكب أسفل الكنيسة التي تقوم على رابية متواضعة، كجميع الروابي في تلك المنطقة. وحمل الناس النعش وصعدوا به. قرعت الأجراس فوق رؤوسهم. وطالعتهم من بين الأضرحة مجموعة بنات شاحبات كُنَّ يتهيأن للعمادة، وقد وقفن متشابكات الأيدي وتفرّجن على المسيرة باضطراب. وذلك لأن موت الجدّة تزامن مع الفترة السنوية التي تسبق طقوس التكريس، سواء في البلدة أو الريف.

بدأت مراسم التأبين تأخذ مجراها في الكنيسة. وأدرك آندرز أنه مُقبل على مواجهة المرحلة الأصعب، وأن تصاعد دوي الأرغن

سيفتتح شروعهم في ترتيل أكثر المزامير شناعة..
أبغض الكلمات التي عرفها على الإطلاق..

ضغط نفسه في المقعد الطويل، وحملق إلى الأمام مباشرة. واندمج الآخرون في الإنشاد وكأنهم في حالة من الوجد. وبينما تكسّرت جلبة الأرغن تحت الأقواس، تلاحمت أصوات الأطفال الصافية من البهو، مع أصوات الكرادلة، وجميع المسنين حوله.. إلى الموت أمضي في كل خطوة أمشيها ...

شعر أن في ذلك إنكاراً لوجود جميع مظاهر الحياة، كما لو أنها ليست بحاجة لأن توجد.. ما نفعها إذاً؟ ما نفعها؟ رآهم مأخوذين.. كمن وهب نفسه لشيء حميم ونفيس.. أكثر ثباتاً من أيّ شيء آخر..

ثم..

بدأ القسّ يتلو..

من التراب.. و..

كم تمنّى لو ينتهي كلّ ذلك، لو يتوقّف! فذاك الاحتفاء المسهب بالموت.. رهيب.

أخيراً.. خرجوا إلى المدافن!

تبعهم جميع مَن في الكنيسة، ولحق بهم غير المدعوين أيضاً.

استطاع آندرز تمييز القبر الجديد من على مسافة جيدة، لأن التراب تكوّم عالياً قربه. اضطر المشيعون إلى مراقبة خطواتهم وهم يتحسّسون طريقهم فوق الأرض الجليدية التي بلغ سمكها ثلاثة أقدام. ثم تحلّق الجميع حول القبر، واستطاع آندرز سماع الجلبة التي صاحبت إنزالهم للنعش. اكتشف أن الأمر لم يجر على ذلك القدر من الصعوبة الذي توقّعه. ربما لأن أيّ شيء يتمّ في الخارج، يتمّ غالباً بسلاسة. لسعتهم الريح القارسة، ونفذ الثلج إلى داخل الجراميق التي انتعلوها فوق أحذيتهم، ووقف الصبية الذين يلعب معهم عادة يحدقون فيه.. بدا له أن الموقف لم تطبق عليه الكآبة والمهابة إطباقاً تاماً.. وعندما ألقى أزهاره في القبر، استطاع أن يبكي!

عاد الجميع إلى الكنيسة بعدئذٍ ليشاركوا في المناولة. ثم انطلقت القافلة الطويلة نفسها إلى البيت. وجرت زلاجات العربات بمزيد من السلاسة حتى فوق بقع الأرض الجرداء، بسبب تساقط بعض الثلج الجديد. لم تستغرق طريق العودة وقتاً، لأن الجياد التي أُطلِق لها العنان اندفعت إلى وجهتها بحرّية. في المزرعة، وجدوا الجدّ بانتظارهم عند عتبة البيت الأمامية. ولما أقبلوا تفرّس مطوّلاً في العربة الفارغة التي وصلت آخراً. ثم سردت عليه الأمّ التفاصيل؛

كيف سارت الأمور، وكيف أخذت الجنازة مجراها من مطلعها إلى خاتمتها. وفي النهاية، سألها عن مستوى الثلج، وهل عوّق الزلاجات.. الأمر الذي نسيت أن تأتي على ذكره!

كانت المأدبة الجاهزة قد نُسّقت على مائدتين طويلتين شكّلتا زاوية قائمة. ومع أنها اشتملت على الكثير من الطعام، لم ينفكّ بخار المزيد منه يتماوج في المطبخ كلما دُفع بابه. ومن ذلك الباب حرصت العجائز على استراق النظر لتفحّص الطاولة. أما الرجال فوقفوا يفركون أيديهم الباردة بانتظار حصولهم على جرعة مشروب. ثم ما لبث أن اتخذ الجميع أماكنهم، وبقوا على حالهم ذاك إلى المساء. وفي تلك الأثناء مُرّرت الأطباق عليهم جميعاً، الطبق تلو الآخر. أطباق بسيطة ولكن كثيرة في كمياتها، متعدّدة في أنواعها. ولا بدّ للمرء أن يتناول القليل من كل شيء، ولو مرّة على الأقلّ، على الرغم من تشابه معظمها. لم يقتصر الأكل على جودة المذاق فقط، بل تعدّاها إلى وفرة مشبعة. احتسى الرجال المشروبات الروحية مع الطعام، وحافظوا على اتزانهم خلال الساعة الأولى. وبعد فترة بدأ لغطهم يتصاعد، فراحوا يتبادلون الحديث عبر المائدة من أقصاها إلى أدناها، واضطروا أحياناً إلى الانحناء إلى الأمام لمتابعة الحوار.

قعدوا متلاصقين جداً، ولم يستطيعوا التحرّك إلا بصعوبة بالغة. والكراسي التي تمت استعارتها من هنا وهناك لُـزّت لـزّاً الواحـد بالآخر. وفي نهاية الغرفة عند الباب، لم يتسـع المكـان إلا لمقعـدٍ ينتصب عادة تحت العريشة في الصيف، وللـوح خشبي ثخين. وإذا

حدث ورغب أحد الرجال إزاء الجدار في الخروج، اضطرّ الجميع إلى النهوض. وغالباً ما وجدوا صعوبة في فعل ذلك بلياقة. أما النسوة اللاتي لم يتح لهن القيام قطّ فتذمرن بدمائة. وكلما مرّ وقت على المأدبة، تفاقمت الحيوية فيها، وتغلغل دفء الغرفة في أوصال الجميع. ومع ازدياد حرارة الجو ازدهرت النار المصطلية في الموقد المكشوف، فتصبّبوا عرقاً. وسرعان ما تنامى الشعور بالحبور لدى الجميع فتكلّموا وتكلّموا. انتعش المُسنّون ممن اشتُهروا بحسّهم الفكاهي، وبدأوا يتحيّنون فرصهم للتألق بابتسامات عريضة، وتبارزوا متنافسين. واكتفى القريبون منهم بالاستماع، وأصغت إليهم النساء برؤوس مائلة. وانغمس رجال آخرون في مناقشات جادّة، تناولت الأبقار التي قاربت الوضع، الكلس والفوسفات الجيّد، مصارف المياه الباطنية وزراعة الأشنة. وفعلوا ذلك بأصوات عالية ليسمع الباقون وجهات نظرهم.. آراءهم الحالية بالقضايا..

بمعزل عن المزارعين شمل الحضور المعلم جان؛ خياط ضئيل الجسم يتناثر البصاق من فيه عندما يتكلّم، ولد ونشأ في الأبرشية، وهو من تولّى خياطة ملابس الأشخاص الجسام في المنطقة. اضطرّ دائماً إلى اعتلاء مسند ليأخذ قياسات الزبائن، وهذا شيء مزعج

طبعاً لأن التخلّي عن المسند مستحيل، لكن لا شكّ أن في البصق عليهم طوال الوقت تعويضاً لا يُستهان به.

وهناك الطحّان أيضاً، الرجل الوحيد البدين حقاً في المأتم، وذو المؤخّرة التي نتأت من بين قضبان ظهر الكرسي وتجاوزت مقعده. ولاحظ آندرز الذي قبع إلى جانبه أن شعر أذنيه معفّر بالطحين.

وعلى مقعد الحديقة عند الباب جثم بيتر بوت لاك؛ شاب هزيل ليس من ملاكي الأراضي كذلك. وطوال تلك الفترة لم ينبس ببنت شفة ولم يرفع نظره. إنما اكتفى بالقعود منحنياً، ورأسه أشعث الشعر منكبّ فوق صحنه. يُقال عنه إنه إذا ظنّ أنه سيُدعى إلى وجبة ما، صام عن الطعام عدّة أيام. وإذا تبيّن له في ما بعد أنه قد أخطأ في حساباته، عاد إلى الأكل ببساطة. ويُقال إن لديه في بيته بطاطس مسلوقة وخبزاً بائتاً في صندوق الخبز الذي يغلقه بعجالة عندما يزوره أحد. بيد أن الحقيقة غير ذلك، فقد كان في الواقع إنساناً فقيراً، وبحاجة ماسّة إلى الطعام، سواء طعامه أم طعام الآخرين. وهذا شيء لم يتطرّق إليه أحد، على الرغم من بعض التعليقات الساخرة التي طالته تارة وأخرى. وبما أنه أقلّ الموجودين شأناً، انتحى في مجلسه جانب الباب، إضافة إلى أن تواري الموضع هناك

جعله بمنأى عن ملاحظة الناس كم أكل وشرب.

قرابة الساعة الخامسة وإثر حلول الظلام، جاء دور الحلوى بعد الاكتفاء من أطباق اللحم. فقُدّمت المأكولات التي أحضرها الضيوف؛ مأكولات ضمّت تشكيلات كثيرة من كاتو الجبن والأجبان الحلوة. وعلى الرغم من تشابهها، لم يحل هذا دون تمييز المرء ما يخصّه منها حول الطبق النحاسي على مفرش الطاولة. ولذلك ألحّت كل زوجة على أن يتذوّق الجميع ما أعدّته. ورأى الحضور أنه من الصعب الاكتفاء بشيء. وبدافع من الاستمتاع المطلق الذي شعروا أنهم يستحقونه، استرخوا على كراسيهم، وأخذوا أنفاساً عميقة. حتى بيتر طلع من مكمنه المعتم قليلاً، ورنا صامتاً تجاه الطاولة لفترة قصيرة. أما آندرز فراقه وجوده وسط ذلك الصخب والدفء، حيث جميع النسوة العجائز والرجال يثرثرون ويأكلون بِنَهمٍ خلافاً لحالهم باكراً. وجعلته طقطقة النار، والحرارة التي أشاعت جواً من النعاس، يشعر بأمان بالغ. كان يقعد إزاء الجدار. ومن وراء ظهور الناس، لاح له زجاج النوافذ أسود كالحبر. بيد أن الداخل لم يفتقر إلى الضوء مطلقاً، فقد شعّت الغرفة بالنور؛ إذ انتصب في وسط المائدة الطويلة مصباح البارافين الكبير، وفي نهايتها واحد أصغر منه،

وأنارت الشموع طرفها الآخر عند الباب. مع ذلك، بدت له الأمّ التي خُصّت بكرسي الشرف إلى جانب القسّ هامدة وشاحبة؛ شحوبها بان واضحاً إلى حدّ ما بسبب الإضاءة القوية.

أتراها ما بادلت أحداً أيّ حديث؟!

عندما أشرفت المأدبة على الانتهاء، اختُتِمت بأجود طبق على الإطلاق؛ قالب كاتو من البلدة زُيّن بالأسود والأبيض، يتوسطه صليب أسود كبير. وما إن رآه الحضور حتى نال استحسانهم ورغبوا كلّهم في تذوّقه. ارتعد آندرز عندما لمحه يُقرّب منه، وحرص على أن يدعه يتجاوزه، حتى وإن اعتقد أنه ربما ما تذوّق قطّ شيئاً يضاهيه. لكنه راقب الطحّان جيداً وهو يتناول قطعة كبيرة من ذلك الصليب ويلتهمها دفعة واحدة.

أخيراً قاموا من على المائدة. وبعد أن تلا القسّ صلاة الشكر بوقار فُتحت الأبواب وانتشر الناس. بيد أنهم جاهدوا لشقّ طريقهم في الرواق بين أكوام المعاطف العبقة بروائح التبن والحظائر. فقد اكتظّ الرواق بها كما لو أن أبرشية كاملة تقطن بالبيت. ولما صعدوا إلى الغرف العلوية وجدوها رحبة ومنعشة بعد الدفء في الأسفل. وفاح عليهم فيها عرف واه تخلّف من البصل والتفاح، ومن طربون

الخزامى وراء المرآة، ذاك الذي اعتادت الجدّة أن تأخذ القليل منه كلما قصدت الكنيسة. قُدّمت القهوة مع كعك للسيدات وبراندي للرجال. وما لبث أن غدا المكان دافئاً وعامراً بالناس الذين دردشوا ومتّعوا أنفسهم.

لم يعرف آندرز أين يستقرّ؛ إذ لم يجد أحداً يجايله من بين الحضور ليركن إليه، لأنه أصغر الجميع سنّاً. تنقّل في أرجاء البيت، هنا وهناك. ووقف أحياناً إزاء جدار أو آخر. دفع مرّة باب المطبخ بحكم العادة ونظر.. لم ير سوى غرباء يغسلون الأطباق ويرتّبون المواعين، وأكوام هائلة لا تخصّ أهل البيت من الصيني بصحون تتوسطها وردة. صعد ليتسكّع في الطابق العلوي، استطلع الغرف المشغولة بالناس. قعد واستمع إلى أحاديثهم. وجد النساء في غرفة. والرجال في أخرى يمزّون شرابهم؛ غرفتهم عبقة بالدخان وجميع من فيها تكلّم في الوقت نفسه. لا أحد أصغى لأحد.. جلبة مطلقة ومعنويات عالية. وعلى الرغم من أنه شعر بالارتياح فيها، عاد إلى الأسفل بعد برهة. وأثناء هبوطه الدرج تحاشى النظر إلى لوحة معلّقة على الجدار؛ لوحة بسيطة تمثّل طريقاً من مزرعة إلى كنيسة. المزرعة في القاع والكنيسة في القمّة يحيطها بعض الصلبان

وأشجار البتولا، والطريق نفسها تتلوى بمحاذاة السياج. عجّل بالنزول، عجّل، تجاوزها، فتح باب البيت وخرج.

طلع على ظلمة حالكة تماماً، وجوّ لاسع البرد إنما ساكن وخالٍ من الريح. لمح بعض الرجال يقفون بين أشجار التوت البرّي لقضاء حاجتهم. لاحوا في الظلام ضخاماً جساماً، وتردّد وقع رشاش بولهم كأنه من خيول. تأمّل السماء التي بدت ناحية الشرق صافية ومرصّعة ببعض النجوم، غائمة في الجهات الأخرى. وعندما دخل الرجالُ البيت بقي واقفاً وحده وسط السكون.

بصّ ضوء في المبنى الفرعي. استطاع استشفافه من النافذة الصغيرة المُطلّة على الأبقار، ولكن ليس بوضوح كبير بسبب نسيج خيوط العناكب على النافذة. ولم تمض هنيهة إلا وخرجت من هناك امرأة تحمل دلو حليب بيد ومصباحاً باليد الأخرى. شاهدها تتقدّم على طول الدرب، وميض المصباح يسقط على تنورتها الرمادية التي بلغت قدميها ورفرفت أمامها. لما اقتربت من البيت المُضاء استدارت وسلكت الممرّ المؤدي إلى المطبخ. تبيّن له أنها امرأة متوسطة العمر لا يعرفها.

صرّ الثلج المتراكم عند النهر. عاد آندرز وتنبّه إلى البرد الشديد،

وإلى أنه ما خرج إلا ليفعل ما فعله الرجال قبله. فمضى إلى شجرة التفاح عند الجدار الجانبي، لأنه الموضع الذي قصده دائماً.

تناهى إليه وقع الضجيج وهدير الأصوات من جميع أرجاء البيت. ذلك البيت الذي خال إنه سينهار من شدّة ازدحامه بالخلق.. خلق ثرثارون.. وخلق ليسوا بثرثارين في أغلب الأحيان. وبينما وقف هناك مولياً البيت ظهره، نفذ إليه من خلال اللغط المختلط صوت منفرد لم يبد أنه يخاطب أحداً؛ صوت هادئ وواضح، لم يعكّره شيء ولم يردّ عليه أحد. التفت. رأى عند الجدار الجانبي نافذة واطئة تهيأ له أن الغرفة التي تشرف عليها ساكنة سكوناً غريباً، وكأنها خالية من الناس. عرف أنها نافذة الغرفة الصغيرة الجانبية، ولبث يراقبها من مكانه. وعندما انتهى توجّه إليها ونظر عبرها. شاهد الجدّ معتدلاً على السرير الذي ماتت فيه زوجته العجوز، ومستغرقاً في قراءة الكتاب المقدّس المستقرّ على جلد ماعز أمامه. كانت ملاءات السرير ملساء جداً، مما دلّ على أنها لم تستعمل من قبل قطّ. والجدّ نفسه يرتدي قميصاً نظيفاً وجديداً أيضاً لأن كتانه لم يُقصر بعد. وإذ قبع هناك يقرأ، فعل ذلك بخشوع وكأنه في أحد المراسم؛ شعره المرجّل لتوّه يتهدّل بخصلات مستقيمة على كتفيه،

أغصان التنّوب مبعثرة على الأرض حوله، وأغصان العرعر الطويلة تستقرّ في إحدى زوايا الغرفة.

غدا زجاج النافذة ضبابياً فيما وقف آندرز يتفرّج لأنه تنفّس عليه. أراد أن يغادر، لكنه مسح الزجاج وبقي حيث هو. لم تتحمّل كومة الثلج المتراكمة عند الجدار ثقله فغارت به. أحسّ بملمس الأغصان في حوض الزهور الذي طمره الثلج. استنهض نفسه بقدر ما

استطاع ليتسنى له متابعة ما يجري، لأن الثلج حجب القسم الأسفل من النافذة. وبالرغم من تصاعد جلبة الناس الذين زعقوا وصاحوا في الطابق العلوي، لم يبدر من الشيخ ما ينمّ على أنه شعر بهم، أو ربما لم يسمعهم. فقد قعد بدون حراك، وواصل فمه الأدرد اختلاجه وهو يقرأ بصوته العالي المعهود. وتمكّن آندرز من سماع كلّ كلمة نطق بها.

في النهاية، أغلق الكتاب المقدّس، شبك يديه فوقه وتمتم..

"آمين باسم الله العظيم. آمين!"

وعندما وضع الكتاب على الكرسي قرب السرير، أجال بصره في الغرفة وتكلّم ثانية..

"سيبعثك الله ربّك في اليوم الآخر! "

ثم اضطجع ونفخ المصباح.. وتراءى لآندرز أن الظلام انقضّ وابتلعه.

كبر آندرز وأصبح غلاماً يافعاً. وفي هذه المرحلة بدأ يكثر من الخروج. يسرح في البلدة أو يتجوّل في طرقات الريف، مع أصحابه أو بدونهم، وكأنه ما عاد يجد الاطمئنان في البيت. فقد صار يشعر بضغط غريب بين جنباته، بشيء خانق ومستبدّ في انعزاله وتقوقعه. وأصبح يرى أنه نسيج وحده في طريقة تداخل جميع أشيائه بعضها ببعض، في طريقة تلاحم أناسه مع ممتلكاتهم المحيطة بهم. الكلّ مرتبط بالكلّ، ومكبّل بالرتابة نفسها.. الأثاث القديم.. هواء الغرف.. البسط البالية المنسوجة في دار جدّيه.. والناس الذين مشوا فوقها..

إن دخل المرء عبر بابه، وحيّا أولئك الذين يصادف أنهم هناك، فليس الأمر أكثر من مسألة عودة إلى البيت. وإن تحلّقوا حول

المصباح بعد العشاء، وانكبّت أخواته على حياكتهن، وشعاع الضوء يتمطّى إلى منتصف الجدار، وأصوات القطارات تصلهم من الخارج، فلم يعنِ ذلك إلا أمسية أخرى في البيت. وإن قعد الأب والأمّ ليقرآ في الكتاب المقدّس، كما يفعلان دائماً، مُقطّبيْن ومقموعيْن بالكلمات، استحكم الضيق بالمرء كما لو أن ثقلاً جثم على صدره. وعلى الرغم من ذلك كلّه، ما برحته الطمأنينة، وساده دوماً أمان وسلام مطلق! فأي شيء جعله هكذا؟!

الجميع فيه انتمى إلى الجميع وكلّ ما لديهم مشاع بينهم. لازموه وكأن حجرة استثنائية تضمّهم، وتفصلهم عن بقية العالم. وعاشوا ضمنه حياة واحدة وبالطريقة نفسها. حياة ثابتة لا يغيّرها شيء. بيد أنهم في الحقيقة لم يكونوا إلا مجرد عائلة عادية، غير مميزة الأفراد. ولا بدّ.. لا بدّ للمرء إذا أراد أن يغدو شخصاً مستقلاً أن يثور عليها ويهرب!

وهذا ما شرع فيه فعلاً.

لكن أحداً لم يلاحظ. لا أحد تنبّه إلى هروبه. لا شيء.. لا شيء تعلّق بهم أمكن إظهاره بسهولة، أمكن تحويله إلى تعبير خارجي. فالأمور لطالما طمرت نفسها داخلهم بكل بساطة، استكنّت فيهم،

ونادراً ما استوعب المرء ما جرى له هو بحدّ ذاته. شعروا فقط، شعروا بالمستجدات. وذلك الشعور هو ما هيمن عليه وأمضّه، فانطوى على نفسه يستشفه متخبطاً خلاله، وكأنه في غيابة قبو.

أدرك أن ثمّة شيئاً قاسياً في ما بدأ يحدث له؛ كولادة، وكأوجاع وتباريح المخاض. قلق من حياة جديدة شرعت تستيقظ ومن أخرى قديمة. وشيء مقزز للنفس داخله، لأن شيئاً آخر آخذ يتحلل، يتبدّل، يتفسّخ تقريباً.

أربكه ما جرى.

أيّ شيء ذاك الذي بدأ يتغيّر فيه! ولماذا!

إن الحيوانات إذا قاربت الوضع وأتاها المخاض نأت عمّن حولها، انسحبت بعيداً، إلى عتمة جحورها، إلى جوف الظلام، حيث لا يمكن سماع عويلها، حيث تعضّ بنفسها على الحبل السري لتقطعه وهي تنشج، ومواليدها العمياء تتنشّق رائحة الدم الذي رضعته الأرض..

ما فائدة الانتماء إلى عائلة إذاً؟! ما جدواه؟!

عذّبه ما اعتمل داخله. راقب بحذر كلّ تحوّل طرأ عليه، مهما بدا تافهاً، ليواكب جميع التطوّرات طوال الوقت.. وفعل ذلك وهو شبه

مستسيغ لها..

ولأول مرّة عرف كم أن الحياة مفكّكة وكذوبة، وكيف أن المرء يعيش عمراً ناقصاً وزائفاً والأشياء الأخرى تواصل مسيرتها. نعم عرف. عرف أن الحياة تُقحم المرء فيها، ثم تلفّق له خدعة الانسجام معها. وبينما ينزلق كلّ شيء من تحته، تتابع مظاهرها التقدّم..

لأول مرّة عرف، ولأول مرّة استنكف عن السكنى في وسط ذاته. وهذا في الواقع ما فعله دائماً حتى تلك اللحظة.

كانت هذه خطواته الأولى نحو الشباب. أفظع الأطوار في حياة الإنسان، لأنه أكثرها زيفاً، أكثرها غدراً، أكثرها تدنياً. ولا يأبى الإقرار بهذه الحقيقة إلا من بلغ به الكذب حدّ خداع النفس. فالطفولة وسنّ الرشد والشيخوخة يمكن أن نجدها دائماً صادقة وذات مغزى. أما الشباب فهو مرحلة ليس فيها غناء للإنسان الأصيل. هو مرحلة انعدام جذور الشخصية، مرحلة الحرية المستهترة.. الانحلال المخيف.. التداعي.. الاحتيال على الحياة نفسها.. وجميعها ليست بذات نفع للإنسان. ولا عجب من تنطّع تجّار العبارات الجوفاء في الكتابة عنها، ففي أحضانها يُخصب تأنقهم البياني، وفي زمنها يتطوحون تيهاً. زمنٌ.. المعروض فيه كثير والمطلوب قليل. وإذ

وجد آندرز نفسه في هذه الطريق، أيقن أنه ما زال بعد في أولها.

عندما بدأ ينأى عمّن حوله، زحف خلسة بعيداً عن إلههم، وانسلّ خارجاً بدون أن يضبطه أحد. وما إن ألفى نفسه في الظلام وحوله لا شيء سوى فضاء خاوٍ حتى ارتعد، كمن خالجته شهوة حسيّة. اختبر ما أحسّ به. لم يجد سوى الخواء. نعم.. علم جيداً أن ليس سوى الخواء هناك. علم ذلك منذ مدّة طويلة بما فيه الكفاية، أطول ربما مما يتذكّر. ولذلك ارتأى أن يصمد في صلب الظلام ليسبر ما اعتراه بدقّة. هذا، جعل تحمّل قدره الجسيم أسهل عليه. ولو أنه استطاع فقط أن يواصل الوقوف في الظلام بلا حراك، لو أنه ما احتفظ ببقائه إلا هناك، لما كان ذلك بالمصير الذي يستدعي التذمّر، ولناسبه. بل إنه لاستطاع أيضاً أن ينمو ويترعرع في الظلام. بيد أنه في الوقت نفسه لم يجد فائدة من البقاء فيه بما أن الموت يحدق به. بما أنه سيموت. والكلّ عرف. نعم.. الكلّ. كلّهم عرفوا أنه سيموت من المرض الصدري الذي أصيب به قبل مدّة من الزمن. ذاك المرض الذي ألزم الناس المحافظة على بضع خطوات بعيداً عنه، لئلا ينقل إليهم عدواه. حتى إخوته وأخواته فعلوا ذلك. مع أنهم حاولوا التمويه أكثر بقليل من الآخرين، لأنهم لم يشاءوا له أن يلاحظ.

لا، لم يكن من السهل ملاحظة الخطوتين بينهم وبينه، إلا أنه لاحظ. وهذا.. هذا أكثر ما مزّق قلبه. ولكم.. لكم تمنّى لو صاح في وجوههم أن بمستطاعهم توفير المشقّة على أنفسهم. لم يداخله شكّ في ما لاحظه. وكيف للشكّ أن يداخله وهو يمتلك عينين؟! ربما هو لم يلاحظ كلّ شيء، كلّ تعبير ونبرة، كلّ كلمة صغيرة، بما فيها تلك المهموسة في المطبخ، وفي الغرفة الصغيرة حيث غدوا يغلقون الباب على أنفسهم.. يغلقون الباب بين الغرفتين.. الباب الذي لم يُغلق من قبل قطّ! ولكن عينيه لم تعميا عن رؤيتهم وهم يتأسون عليه.. لم تعميا عن كآبتهم.. تلك الحرقة الطاغية في البيت.. تلك الحقيقة الرهيبة التي تجلّت في وجود شخص حيّ بينهم يموت!

لقد رأى كلّ شيء، وفهم كلّ شيء.. بسهولة!

أمّه وحدها لم تُظهِر أيّ ردّ فعل مهما دنت منه. بيد أنها كانت فوق المرض والموت وما وراءهما، بل ما وراء كلّ شيء. ولا يمكن اعتبارها من المنتمين إلى هذا العالم. برعت في حرصها على ألا يلاحظ أدنى إشارة. جهدت في أن تجعل الأمور تسير كالمعتاد، في أن لا يساوره أدنى شكّ، أن يشعر فقط كم هو محبوب، وكيف يفكّرون فيه. أرادت ملازمته باستمرار. لم يغب هو ومرضه عن

ذهنها قطّ. ووهبت نفسها له أكثر من أيّ منهم، لأن أحداً لا يدري متى أو إلى متى..

في الربيع، صار كلما عاد من المدرسة، يحصل على بيضة مع غدائه. شيء لم يحصل عليه الباقون. قالت الأمّ إنه بحاجة إليها. ولذلك ما انفكّ يجدها تنتظره مع كلّ غداء، كإشعار تذكير في حال نسي. وحينذاك تقعد الأمّ على الكرسي المجاور لكرسيه وتتحدّث.. لم تكن مضطرة إلى القعود هناك بالضبط، فثمّة كراسٍ كثيرة أخرى حول طاولة المطبخ، وليس في البيت سواهما خلال تلك الفترة. تقعد وتتحدّث عن أيّ شيء إلا عما يجول في رأسيهما معاً، وكأنها تتعمّد صرفه عن هذيانه. ولطالما فعلت ذلك بلطف جمّ جرحه في الصميم. لا توبيخ مطلقاً، لا كلمة قاسية مع أنه توقّف عن تلاوة صلاة الشكر عند تناول الطعام. لم تقم وزناً للهفوات، وغفرت له جميع زلاته. لكن حنانها فاق طاقة احتماله، وتمنّى فقط لو أن باستطاعته أن يكرهها.

كان كلّ ما يكتنف البيت من طيبة ومحبّة أكثر من أن يستطيع التأقلم معه. ذلك البيت الذي ما اكتسحته يوماً عاصفة جارفة. البيت الذي استقرّوا فيه دائماً مرتاحين مصونين محصّنين. تربطهم أواصر

سلام وشّج بينهم؛ سلام لم يمنحهم الحرية ولم يشدّ أزرهم. داخلهم تسري حرارة لم تبلغ درجة الاشتعال قطّ، إنما واصلت جريانها فيهم لتدفئهم فحسب. لا شيء منها أُهدِر، ولا لهب انبثق منها مرّة. لم يُسمح لجذوتها أن تشتعل مطلقاً، فلم تتأجج ناراً في يوم. وبقيت دوماً مجرّد شيء احتفظوا به ليدفئوا أنفسهم فقط. ولا ريب في أن هذا ما جعل صدره ضائقاً منقبضاً طوال الوقت. ضائقاً حتى من تلك التقوى الرزينة العتيقة التي وقرت في قلب والديه؛ تلك الطمأنينة الموغلة في القدم التي نشداها من خلال الآهات.. الآهات فقط..

آهات أرهقت كاهل المرء. بدت وكأنها تتلهّف إلى خنقه. واضطرته إلى الفرار!

لا.. لم يساعده البيت. ما ساعده حقاً تبنّيه لمذهب جديد استبعد الربّ والأمل. مذهب فضح الحياة. أظهرها خاوية وفجّة، بكلّ عريّها، بكلّ افتقار معناها إلى المنهجية. وما أوصله إليه ذلك المذهب صحيح بلا شكّ، وأقرب إلى الحقيقة. فهو مذهب لم يقتصر على العقيدة، بل تعدّاها إلى عكس الوقائع كما هي.

وعلى الرغم من أن شيئاً ما عاد يهمّه كثيراً مذ عرف أن الموت يحدق به، كسر الطوق وهرب. تهيأ له أنه في العراء، حيث البرد

والقسوة على أشدّهما يستطيع أن ينعم بالحياة القليلة المتبقية له. علمه أن الخارج خاوٍ سهّل عليه الأمر، لأنه جعله مستعدّا لما ينتظره. وظنّ أنه إذا ألِف الفراغ، فسيكفّ عن اعتباره شيئاً فظيعاً، ولن يضطر إلى استهلاك وقته القصير مضطرباً مشبوب العاطفة. بيد أنه لم يألفه. لا.. عرف أنه لن يألفه أبداً، ومع ذلك أقبل على المذهب الجديد، وتشرّبه بنهم حتى أُتخم به. وبدا أنه مصنوع خصيصاً له، وأنه أعانه في محنته. فقد قسّى قلبه، وفسّر له الكثير مما عاناه في طفولته، عندما لم تنفكّ الوحشة واللوعة تكمنان له في الظلماء المتربّصة به، على الرغم من أمان البيت، ومن كل ما توافر له هناك...

لقد أدرك أنه كان آنذاك محقاً في مخاوفه! وأدرك أنه أصبح محقاً في مخاوفه أكثر من ذي قبل.. أكثر بكثير!

لم يوفّر له ما انتهى إليه السعادةَ أو الهدوء، لكن هذا لم يهمّه. الكلّ تحرّك قدماً، بدون أرض صلبة تحته، وتحرّك هو مع الكلّ. لا شيء مؤكّد، لا شيء راسخ.. وللمرء أن يؤمن بما يشاء وقتما يشاء. الخواء وحده بقي أبدي الثبات. الخواء، وذلك الأسى الذي قضم فيه وقضم، قرض تجويفه داخله.. في صدره شعر به.. شعر بالتجويف

يتّسع ويتّسع..

وكلما أنهكه التعب، كلما فكّر أنه سيموت على أي حال، رأى أنه لم يجن فائدة من نزع الأغلال، وأن من الأفضل له أن يعود ليركن إلى الدعة في حضن البيت الآمن. حيث كلّ شيء أكيد، وحيث ستقعد الأمّ وتمسك يده وتقرأ له من كتاب الترانيم المقدّسة. فهذا ما ستفعله حتما.. بل عرف أنها حتماً ستفعل..

لكنه لم يعد. لم يجد أن في العودة نفعاً. فقد أيقن أن طمأنينة البيت وسلامه سيبقيان خانقيْن. وليس أمام المرء إلا الهروب. ثم إن الأشياء لا بدّ أن تظهر كما هي، وعلى المرء أن يعيش الحياة بحلوها ومرّها حتى وهو مشرف على الموت.

ذاك استوعبه جيداً. أصرّ عليه كإصرار تلك السخونة على اجتياح جسمه.

نعم.. غالباً ما أحسّ بجسمه يتّقد وكأنه يحترق..

حمّى، سببها مرضه طبعاً. أو لعلّها نجمت من الطاقات الموشكة أن تستيقظ داخله. طاقات هجعت متوارية في الطفل، وبدأت تتفجّر في الغلام، صمّاء وفاقدة للوعي. تتفجّر وتعوّقه أكثر فأكثر..

لم يعرف. لا أحد يعرف. لا أحد يعلم إلى أين ينجرف المرء في

مثل هذه الحالات. وما ذلك الانسلاخ المؤقت الذي لجأ إليه إلا وسيلة دفاع يائس منه؛ محاولة لاستيعاب مغزى ما حدث له، ومواراة لعدم ثقته بنفسه وشوقه الجارف سواء للآخرين أو لذاته. ولأن شيئاً ما عاد يعنيه، بما أنه كان في جميع الأحوال سيموت، سيموت فحسب، اكتفى بالانتظار فقط. اكتفى بالوقوف في الخارج ينتظر، كشخص وقف يسترق السمع عند باب.

هكذا شعر. وذاك تقريباً المكان الذي وصل إليه. لولا أنه، وخلافاً للحياة التي يتّسم اختلاطها وتناقضها بالرحمة، لم يكفّ قط عن الوثوب عشوائياً من شيء إلى شيء يليه.

في العالم الحقيقي، بدا سعيداً ومنشرحاً معظم الوقت. لا أحد لاحظ وجود أيّ شيء مختلف فيه، ولا حتى هو نفسه في أغلب الأحيان. ولطالما طفر سروراً من أتفه الأمور؛ ربما لمجرّد أن الشمس طلعت لبرهة، أو لأن وابلاً من المطر انهمر بعد نوبة صحو. أو بدون أي سبب على الإطلاق، وإنما لأن الأوضاع بقيت على حالها. أو بسبب أيّ شيء.. أيّ شيء. ولو أنه حاول فقط الخروج من قبوه، لاكتشف أن العالم ينبسط منفتحاً له بروعة؛ لا علّة فيه، بيّن الوضوح، ويمكن تلمّس ما يسوده من خير وطمأنينة

بسهولة. لو أنه شاء هذا، لما اضطرّ إلى أكثر من أن يطلّ برأسه خارج النافذة الصغيرة...

ما عاشه واعتمل داخله في دنيا الواقع خالطته تجارب عديدة متنوعة، وحوى القليل من كل شيء. ففي الشتاء على سبيل المثال، لما كان يُتاح لهم الذهاب إلى التزلّج لمعظم النهار تقريباً، راقهم الانطلاق إلى البحيرات المجلّدة المنتشرة في كلّ مكان. وأينما تنتهي واحدة وتبدأ أخرى، وجدوا متعة كبيرة في الصعود إلى البرازخ على زلاجاتهم، ليعاودا الاندفاع فوق البحيرة التالية.

وعندما تُغلق المدرسة للتنظيف يتمكّنون من الخروج إلى التزلّج باكراً. حينذاك كانوا ينطلقون في قرّ الصباح مع صرير الجليد الذي يغالبه رجال وقفوا بعيداً يصيدون السمك؛ ساكنين وصغاراً كالنقاط في العراء. وإذا دنا أحد منهم تصدّوا له بنظرات شزراء وأفواه نصف فاغرة فحسب. بيد أن المرء غالباً ما تصرّف حيال ذلك كالأمريكان؛ تجاهلهم وعاد إلى الانطلاق وكأن الأمر لا يعنيه. في تلك الأوقات يتسنّى لهم أن يوغلوا في التزلّج حتى حدود بيت مراقب خطوط "تاسيت". فيلتفّون حوله، ويفزعون الدجاج ببضع جولات متهورة تجعله يتدافع بجنون صوب الدار. وهناك، كالعديد من

المناطق الأخرى، تواجههم التيارات لتداخل نهر في بحيرة، مما يستلزم وجود من يحرسهم. ويصادفون في بعض المواضع بقعاً معشوشبة من جزر صغيرة وكبيرة يستطيع المرء التزلّج حولها. وفي مواضع أخرى لا يصادفون شيئاً. وعند الضفة الشمالية الشرقية يلمحون المنطقة المخصصة للسباحة، لكنها تبدو لهم غريبة المنظر في الشتاء، ويعجزون حتى عن تمييز الأكمة التي اعتادوا خلع ثيابهم وراءها. وفي وقت متأخر من المساء يعمدون إلى جمع الخيزران لإعداد مشعلة. وإذ يهرولون عائدين به من ناحية الخلجان الصغيرة يقصدون النار مباشرة، حيث يلوون الأغصان ويقذفونها فيها. فتتصاعد ألسنة اللهب، ويتطاير الشرّر هنا وهناك مع مجرى الهواء. ثم لا يلبث الثلج أن يذوب ويصرّ وقد ناء بالحرارة وبكثرة عدد الواقفين حول النار. وحينما يبدأ بالتصدّع، يخترق صدى قعقعته أعماق الظلام. أخيراً.. يعودون إلى البيت جائعين متوردي الوجنات. هناك، يجفّفون زلاجاتهم قرب الموقد، يعالجون أظافر أقدامهم الغارزة في اللحم، ثم يتناولون الطعام الذي يعاد تسخينه لهم لأن موعدي الغداء والعشاء انقضيا منذ وقت طويل.

أفَلَم تكن تلك بالحياة الرائعة؟! حياة لا علّة فيها؟! وبالرغم من أنها

مختلفة بالتأكيد عن حياته الداخلية... ألم يشكّل هو نفسه جزءاً منها؟!

نعم، عاش فعلاً أنماطاً مختلفة من الحياة؛ اثنتين منها على الأقلّ. وفي الوقت نفسه رأى أن ما من صلة بينهما. ومهما بلغ به الجذل في إحداهما، استطاع اقتلاع نفسه منها فوراً. إلا أن الشباب الغضّ يمكن أيضاً اقتلاعه فوراً. وفي جميع الأحوال، وعلى الرغم من تباين الأساليب التي انتهجها، نجح في العيش على ذلك النحو. نجح فيه.. وجده مثيراً، وضرورة ملحّة للمرء عندما لا يمتلك من العمر إلا مثل تلك المدّة القصيرة من الوقت..

أعرف ما ينطوي عليه ذاك المرض حقيقة؟

لا.. ليس أكثر من أنه حينما لم يُعمل فكره فيه ما أحسّ بأدنى ألم. ولذلك ارتأى أن يواجهه بشيء من اللامبالاة، أن يدعه يتغلغل فيه كما يحلو له. وهذا ما حدث على أي حال.

حياته هذه لم تخل من الأصدقاء الذين قطع الوقت معهم. وأحد أولئك الأصدقاء كان يُدعى جوناس؛ فتى ريفي طيّب السريرة، طلب العلم لهدف ما. ولطالما قضى وإياه الشتاء في مناقشات عميقة مختلفة. وصيفاً، تسلّيا باصطياد السمك.

في مرحلة الطفولة فقد جوناس ذراعه اليمنى بدرّاسة حنطة،

واستعاض عنها بذراع خشبية. ومع ذلك، تميّز بخفّة حركة فاقت جميع أنداده. وأفلح في استخدام يده اليسرى للقيام بأيّ عمل، وبطرق بزّ فيها الآخرين. برع على نحو خاصّ في اصطياد السمك؛ سلواهما الصيفية خلال الفترات التي اعتاد آندرز أن يقضيها عنده في البيت، على بعد عدة أميال من البلدة. فقد حوت تلك المنطقة العديد من البحيرات؛ أحسنها واحدة ذات ضفاف واطئة موحلة مغطاة بالحشيش. وعندما يقصدانها، يخلعان أحذيتهما بعيداً عنها في طرف الغابة، ويزحفان إلى حافتها تماماً، حيث يغفو السمك مطمئناً تحت الشمس المتوهّجة. ثم يجاهدان ليتسلّلا بهدوء خلال الوحل، ويغدو ذلك أكثر صعوبة مع تقدّمهما. ويبقى جوناس في الطليعة دائماً، وهذا ليس إلا تكتيكاً صائباً، لأنه هو مَن نجح دائماً في اصطيادها. أما آندرز الذي يناضل وراءه، فيتعرّض معظم الأحيان للتوبيخ. وإذا أحدث جلبة، هدّده جوناس بذراعه الوحيدة، وفي الحال يُطبق على الأرجاء سكون ماحق، ويصبح التعامل معه مستحيلاً. وفيما يربض متربّصاً عند الضفة، يلمح الأسماك من على مسافة بعيدة، بعيدة جداً، غافيةً تحت أوراق النيلوفر. وبطريقة ما، يحتال على أنشوطة الوتر ويصوّبها فوق رؤوسها. وخلال فترة قصيرة يصبح لديهما قصبة

ملآنة. وفي الوقت نفسه لا تغفل عين جوناس عن مراقبة الحسّاد من الناس، سواء عند الضفة، أو على بعض القوارب النائئة من بين حزم القصب. ولا ينفكّ يدخل الرعب في قلوب الذين يظنون أن السمك لهم، أو الذين فشلوا في اصطياد أيّ منه. مع ذلك، نادراً ما استطاعا أن يتباهيا في البيت بالكمية التي اصطاداها. فكثيراً ما وزّع جوناس غنائمه وهو في طريق العودة. وأحياناً، لا يتبقّى معه ولا حتى زعنفة. وحينما يندفعان إلى البيت خاليي الوفاض وخجلين، تبدأ أمّ جوناس بالتذمّر، ثم لا تلبث أن تأتيهما بالقهوة والكعك.

كانت القرية التي عاش فيها جوناس وأهله موحشة بطريقة عجيبة. هذا على الأقلّ ما شعر به آندرز. ربما لأنه غريب عنها، أو ربما لأن جميع بيوتها غير مدهونة بالطلاء، وينقصها الترتيب. وغالباً ما افتقرت ثلاث أو أربع نوافذ في كلّ منها إلى الستائر. إضافة إلى أن المنطقة لم تحتوِ على وفرة من المزروعات، ولا حدائق فيها. ليس غير أرض جرداء، وبئر، وشجرة تفاح. ولعل ذلك الشعور تملّك آندرز لأن المسافات بين المزارع لاحت خاوية وعدائية بالرغم من تلاصق المباني، وكأن الناس هناك لم يتزاوروا مطلقاً، ولم يعرفوا بعضهم بعضاً. إلا أن جوناس عرفهم كلهم، وسلّم

عليهم دائماً بمرح، سواء اجتمع ببنات يملأن الماء من البئر، أو فتيان مزارع على عربات تحميل السماد أو التبن. وجميعهم بدوا معتادين مصافحته، وهو شيء قد يعتبره المرء أخرق نوعاً ما في البداية لأنه يستخدم يده اليسرى.

مارس جوناس القنص أيضاً في الغابات التي تحيط القرية، واشتهر بمهارته. وفي تلك الحالة، يعمد إلى تلويح بندقيته وتسديدها بحركة واحدة، وإن لم يفعل ذلك عجز عن حملها ثابتة. اصطاد البطّ والأرانب، وطيور "دجاج الأرض"؛ القليل من هذا وذاك وغيره. وفي الخريف قنص طيور "الطيهوج" بوساطة الشعل الضوئية، مع أنها محظورة ونادرة في ذلك الجزء من الريف. حذق كل شيء تقريباً. ولطالما استمتعا بوقتهما. لكن الوضع يختلف خلال فصل الشتاء الذي درجا على قضائه في البلدة. فهناك يتهندمان، ويستغلان الوقت في مناقشات مختلفة المجالات. مناقشات تزداد عمقاً وتنوّراً مع استغراقهما فيها وهما يتمشيان في أفضل ناحية من البلدة. إلا أنهما كثيراً ما نسيا نفسيهما، وتهاديا وكأنهما يتسكّعان في زقاق ريفي.

حبت الطبيعة جوناس مشية مسترخية، توحي للمرء كما لو أن لا

شيء يهمه. وأكسبته ذراعه الخشبية عادة تحسّس كتفه بين وقت وآخر، كأنما ليتأكد من أن الذراع لا تزال في مكانها. وما إن يطمئن عليها حتى يشرق وجهه بابتسامة دمثة. فضلاً عن هذا أحبّ التمسّك بالمظاهر التافهة في البلدة، وأصرّ دائماً على حجب يده الاصطناعية بقفاز؛ ولا يكاد يبلى ويظهر الخشب تحته حتى يشتري قفازاً جديداً. وذات ربيع أخّاذ، عندما بدأ بالخروج مع فتاة، ابتاع قفازاً رماديّ اللون، فاق بجودته وذوقه الرفيع أيّ قفاز آخر اقتناه. بيد أن ما تميّز به حقاً هو تلك الابتسامة الجذابة التي يمكن أن تفتح له أيّ سبيل لو شاء. لكنه لم يكترث بشيء، فقد سبق له أن اختبر العالم، نفذ إلى صميمه واكتشفه على حقيقته تقريباً، ثم انتبذه وعاد إلى المحتد الديني الذي نشأ عليه، والذي ربما عاش بقية حياته وفق تعاليمه.

رافق آندرز صديقاً آخر أيضاً؛ فتى ضئيل البُنية كالقزم اسمه ميور. تعارفا في المدرسة، ثم تركها ميور ليصبح مصلح دراجات. وبذلك اقتصر اجتماعهما على أيام الآحاد، لأن ميور لا يشتغل أثناءها. ولو حدث وتقابلا في الشارع أثناء أيام عمله، لما صافحه ميور بأكثر من إبهام، نظراً إلى تلطّخ يديه بالشحم. لكنه كلّ أحد، يأتي إلى لقائه كأيّ سيد محترم وقد وضع ياقة عالية قاسية. وحينذاك

يذهبان إلى التنزّه معاً، ويدخنان السيجار الرخيص الذي يتمكّن ميور من ادّخاره لكليهما. ويسلكان عادةً الخطّ المؤدي إلى الغابة، ليتسكّعا في الطرقات التي يعرفانها شبراً شبراً، لأنهما كثيراً ما لعبا هناك في طفولتهما. وكلما تحدّثا عن تلك الفترة فعلا ذلك وكأنها حقبة مُغرقة في القدم. واستغرقا في الضحك إذا اكتشفا أنهما ما زالا قادرين على استرجاع ذكرى حادثة وأخرى. لكن.. إن صدف ومرّا قرب حجر آندرز في الغابة، أشاح آندرز بوجهه إلى الاتجاه المعاكس، وأسهب في الكلام بحماسة بالغة. فذلك الحجر ليس قاسماً مشتركاً بينهما، وميور لم يعرف شيئاً عنه.

إلى جانب ميور وجوناس ألِف صحبة مجموعة أخرى مختلفة المشارب من الأصدقاء. واحد منهم ما تلفّظ يوماً بكلمة عقلانية، مؤثراً انتهاج الحكمة على ذلك النحو. وواحد عاش في عالم الجمال، ولم يفهم الباقون قطّ ما ذاك. أما مناقشاتهم المتنوعة فاتسمت كلها بالجدّية والتعقّل، لكنها لم تتطرّق إلى العديد مما يحجم المرء عادةً عن البوح به لأحد؛ جميع ما يمكن أن يجول بخلده وهو يسلك درب الحياة، أو حتى ما قد يموج في صدره ويثقل كاهله.

لكن.. وبعد مفارقة صديق الأحد مصلح الدراجات، وقبيل المساء،

كثيراً ما عاد آندرز إلى الحجر. يفعل ذلك بالرغم من إحساسه بالتعب، وبالرغم من تضاؤل المتعة التي أصبح ينالها من الذهاب.
في الطريق يحاول استرجاع ما بدا عليه المكان عندما طرقه ورفيقه قبل وقت ليس بالبعيد. ويتخيّل أن شيئاً فيه لم يتغيّر تقريباً، بما أن الضياء لا يزال على حاله السابق، والغسق لم يهبط بعد.
تراوده أيضاً خواطر شتى..

يفكّر في الأمور المختلفة التي شغلته من يوم لآخر، ومنحته رضا بالغاً. كيف أنه تعلّق بها، وتلاءم معها كما ينبغي.. كما ينبغي حقاً.
أثمّة شكّ في أن البهجة التي نالها منها فاقت ما ناله الآخرون منها؟ تلك البهجة التي شعر – في بعض الأحيان على الأقلّ – أنه ممتلئ بها. أنه ممتلئ بكلّ شيء حوله. ممتلئ ببهجة لم يعلم من أين جاءته..
بل أثمّة شكّ في ما غمره من سعادة بينما واصل حياته، واستكشف العالم، وتأمّل ما حوله، كحاله وهو يتتبّع خطّ السكّة في لحظته تلك، في مسائه ذاك؟!
سعادة ضاهت سعادة الآخرين!
لا.. لا شكّ في أنه شعر بالسعادة.. في أنه كان سعيداً مثلهم تماماً.

وذاك الثقل المجهول الذي ينوء به ويجرّه وحده سرّاً، ليس إلا شيئاً توهمّه في خياله، ولم يكن ينطوي على أيّ معنى. شأنه شأن هذا الدافع في الذهاب إلى الحجر الذي لم يعد له أيّ علاقة به، أو بأيّ شيء يخصّه. ليس بعد. في طفولته وجد نفسه مسوقاً إليه بحاجة داخلية. وآنذاك، اعتاد أن يربض هناك بإيمان عميق متأجّج، كأنه في حالة بحران. ثم داوم على اللجوء إليه من قبيل الاستمرار. وفي النهاية أصبح شعيرة عقيمة عديمة الجدوى.

لا، بل إنه ما عاد كذلك حتى، ليس شعيرة على الإطلاق. ما عاد يحمل أي رمز. لا أكثر من مسألة خروج إليه.

عندما يجد نفسه يقف هناك، يحرص على الالتزام بموضعه المعتاد الذي يتعرّف عليه من آثاره الظاهرة على العشب. يبقى واقفاً. لا يركع على ركبتيه، فقد امتنع عن الركوع منذ سنوات. لكنه يشبك يديه بشدّة، بأشدّ ما يستطيع. شدّة تسبّب له بعض الخدر، ويحسّ بها في جسمه بأكمله، يحسّ أن يديه متشابكتان حقاً. ثم يبدأ بالابتهال..

لا يطلب سوى أن يبقى حياً. لا شيء عدا ذلك. التضرّع السابق ذاته.. التضرّع المعهود. أن يعيش فقط. يبقى حياً. لا مطالب أخرى

بخصوص أيّ شيء. بقية الأشياء يمكنها أن تتبع هواها.
لا أكثر من ألا يموت. ألا يموت فحسب.
لا يوجّه توسّلاته لأيّ إله، لأنه كفّ عن الإيمان بشيء. لا يفكّر حتى في أن وجود الإيمان لديه قد يساعده على نحو ما، يمنحه دعماً داخلياً، يحمل في طيّاته أيّ أهمية. لا.. لا شيء من هذا.
بل وما كان يرجوه فَقَد أهميته أيضاً. تذرّع به فقط لأنه لا بدّ من وجود سبب ما.
وهكذا، صلّى دائماً من أجل الشيء نفسه.. الشيء نفسه دائماً.
لا، ما عاد يكترث بتحقّق ما نشده. وما فعله ليس أكثر من دافع قسريّ أدرك أنه نابع من توتّره المفرط.
كان حرّاً.. لقد كسر الطوق وانفصل.

ذات مساء خريفي، غادر آندرز البيت ومضى خلال طريق البلـــدة، ميمماً شمالاً خارج طرفها تقريباً. كان الجوّ غائماً وكئيباً، والمطر قد هطل منذ فترة قصيرة، والطرقات المبللة خالية من الناس، ولامعـــة تحت أعمدة النور التي أضيء منها واحد بين كلّ اثنين. لم يصـــادف أحداً في دربه سوى شرطيّ وقف عنـــد زاويـــة الميـــدان. بيـــد أن الأضواء الخافتة بصّت من نوافذ البيوت التي أُسدِلت ستائرها. ومـــن منزل ما تصاعدت أنغام بيانو. تابع مشـــيه حثيثـــاً وياقـــة معطفـــه مرفوعة.

عندما بلغ شارع "تورث" انعطف ومضى إلى باحة دار ما خلال بوابتها. لم يستطع تمييز طريقه بسهولة لأن الظـــلام ازداد حلكـــة. استشفّ في الباحة بضع عربات وأكوامـــاً مـــن الخـــردة القديمـــة، وعجلات مطروحة وصفائح حديد صدئة مكدّسة بعضها فوق بعض.

وعلى مسافة أبعد لمح نوراً ينبعث من دار صغيرة واطئة، على الرغم من أن نوافذها لا تطلّ على تلك الجهة. ومن داخل الدار آنس غناءً خافتاً، وكأن جدراناً سميكة تكتمه. تتبع الأصوات مستعيناً بها على بلوغ العتبة. ولما وصل فتح الباب ودخل.

أشرف على غرفة بيضاء شبه معتمة، مقوّسة السقف وصغيرة النوافذ. تقوم في وسطها دعامة عريضة، من الواضح أنها استُخدِمت للحجب وليس للدعم، لئلا تنكشف الغرفة كلّها من اللحظة الأولى. قريباً من تلك الدعامة كانت المقاعد غير المدهونة مشغولة بعجائز محدودبات وشبّان وضعوا قبعاتهم على أرجلهم وعدّة شابات أيضاً، ووراءها مجموعة من الصبيان الناشئين. وفي الصدارة عند منصّة تدلّى فوقها من السقف مصباحا بارافين، قعد تحت الضوء عدد من جنود جيش الخلاص. وإزاء الجدار، إلى الأمام، تجاه حاجز قضبان حديدية، وقفت ضابطتان تصاحبان القيثارة في الغناء. وإذ أبصرهما آندرز استقرّ على أحد المقاعد.

كان المكان يفتقر إلى الدفء بالرغم من وجود نار للتدفئة، والحاضرون الذين احتفظوا بمعاطفهم عليهم، تكتّل معظمهم في جماعات عند نهاية الغرفة، حيث الموضع أكثر تواريا من غيره.

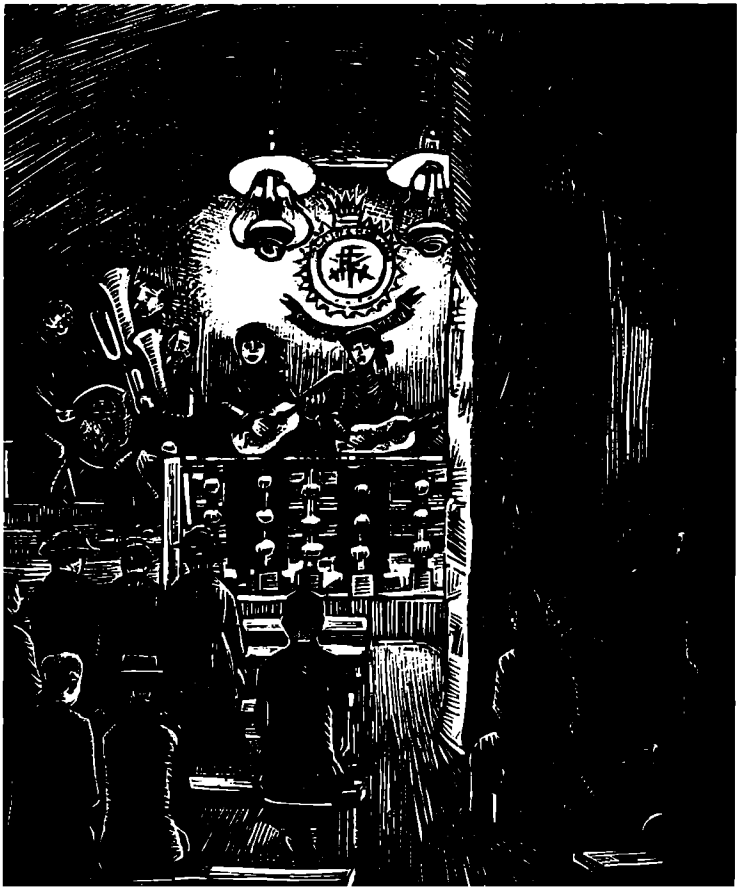

وبذلك بقيت المقاعد الأمامية شاغرة. وبمنأى عن الجميع، بعيداً تجاه الباب، كَمَنَ جوهان المخبول من ملجأ الفقراء، وقبع في الظلمة بعنق مشرئب وعينين متلألئتين. أما الجدران المُندّاة بالرطوبة، فاصطبغت بالسواد في البقع التي تقشّر عنها الجبس. وفي وسط أحدها قام كير محاط بسور، لأن ذلك البيت ليس سوى دكان حِدادة مهجور، استأجره جيش الخلاص لهذه الغاية.

وفيما قعد آندرز تتالت جلجلة القيثارة، وتعالى غناء الحضور – النساء خصوصاً – بأصوات صافية حادّة ومنفعلة. فدوّى الصدى في الغرفة وكأنهم في قبو. بيد أن صوتي الضابطتين فاقا بقية الأصوات نقاءً ومرونة. وبينما وقفتا بعباءتيهما المزرّرتين إلى العنق ورأسيهما المرفوعين وعيونهما البراقة، بدتا في حالة من الانتشاء. لم تنظرا قطّ إلى الكتاب كما فعل الآخرون، لأنهما كانتا تحفظان الأغنية عن ظهر قلب. إحداهما سمراء مفعمة بالحيوية وبشيء ما مكبوت أمكن ملاحظته في نظرتها المشعّة، وعلى شفتيها الدافئتين كلما فتحت فمها الواسع. والأخرى هشّة كالطفل تقريباً. بل وأوحت بُنيتها النحيلة للناظر أنها ما استسلمت للضوء الذي وقفت تحته، إلا لأنها مسلوبة من أي قوة خاصة بها. مع ذلك، اتّسمت بوجود شيء ما فيها يثير

العواطف؛ شيء عاجز وصادق في آن واحد. وجهها شاحب، وقسماتها غير دقيقة كقسمات بنات الريف. إلا أن افتقار تلك القسمات للدقة عُوّض برقّة أضفت عليها الكثير من الجمال. عيناها لم تتوهّجا وهي تُنشد، لكنهما لمعتا باستسلام داخلي. وشعرها الذي تهدّل باهتاً وناعماً من تحت قبعتها الرسمية أحاط وجنتيها. بانت وكأنها على نحو ما بلا أي لون. ومع ذلك اشتعلت كنار، كشعلة لهب يُغذّيها الشمع.

وقبع آندرز الذي يعرفها، يراقبها طوال الوقت.

شُغِل الحضور بإشعال الحماسة داخلهم. غنّوا بمزيد من الاندفاع، وكأنهم راموا إضرام الوهج الذي تأجّج في صدورهم. في البداية ظهر جهدهم متكلّفاً، ثم ما لبث أن شبّ من تلقاء نفسه، وانجرّوا معه بعيداً وكأنهم مُخدّرون. ثم بدأ واحد منهم يدلي بشهادته، وغمغم الآخرون معه..

شكراً لك يا يسوع الحبيب.. بورك اسمك.. هللويا! لك المديح والثناء..

تنهّدوا.. تنهّدوا وابتهلوا ووجوههم مغمورة بأيديهم. وشرعت إحدى النساء تتمايل في مقعدها. واصلوا استنهاض الجندي الذي وقف

يشهد، فتابع بمزيد من الهياج وقد أغمض عينيه وترك الكلمات تتدفّق من فمه. ثم غاب في بحران ابتلع الآخرين أيضاً، كأنه موجة جاشت بهم، علت وانخفضت جاذبة إياهم معها. من المؤخرة تردّد أنين شخص. وفي ظلمة الناحية الأبعد، تسمّر جوهان المخبول وحملق بعينين برّاقتين.

شعر آندرز بالضيق يستحكم فيه أكثر فأكثر، وكاد يصاب بالغثيان. خنقه الهواء الفاسد الذي استحال عليه استنشاقه إلا بجهد. استمع إليهم وهم يتابعون هذيانهم. لم يتطرّقوا إلى ذكر الله مرة واحدة. تحدّثوا فقط عن المسيح.. ثم المسيح.. المسيح فحسب. اعتبر هذا الأمر بالذات بغيضاً، لاسيّما وأنه هو عينه ذلك الجزء من العقيدة الذي نبذه أولاً، والذي غدا لاحقاً أشدّ ما يستهجنه فيها. وها قد ألفاهم يتنهّدون ويزفرون ولا يهلّلون لشيء سواه. حتى الأثير نفسه الذي خيّم ثقيلاً ربض على صدره. شهق مستجدياً الهواء، لكنه لم يستطع التنفّس.. وجد الأثير كثيفاً.. مفرطاً في السخونة.. ليس له.. لا يخصّه.

ثم جاء دورها لتشهد، تلك الضابطة الشابة من جيش الخلاص التي يعرف. اعتدلت عند الحاجز وتكلّمت وهي مُطرِقة. لاحظ أنها

مرتبكة، ليست معتادة بعد على مركزها. لكنها على الرغم من ذلك شعّت نوراً. أخبرتهم كيف نالت الخلاص، كيف جاءها المسيح.. تمجّد اسمه! كيف انتشلها من خطيئتها ورغباتها ومنحها حياة جديدة. كيف أن حالها آل إلى الأفضل، وأن شيئاً ما عاد يقلقها، مثل جميع أطفال العالم. كيف أنها ألقت عليه أحمال متاعبها كلها. ومع أنها قالت ذلك ببساطة لم تبق للغموض أثراً، تدفّق الضياء حولها.

لبث آندرز في مكانه ينظر إليها مفتوناً. لم يحرّك ساكناً، ولم يشح بعينيه عنها مطلقاً. وإذ انبرى الصبيان يقهقهون من وراء الدعامة، انتفض وكأن أحداً أيقظه من سبات. فقاوم نفسه حتى لا يسمعهم، حتى لا يشغله أحد سواها.

لاحظ أنها غدت ثابتة الجنان أكثر بقليل من السابق. وفي بعض اللحظات تجرأت ورفعت عينيها لتنظر تجاه القاعة. لكن دمدمة الصلوات حولها لم تستفزها. ليس أكثر من أنها تكلّمت بنبرة أدفأ نوعاً ما عندما تأوّه الحاضرون. تأمل مظهرها الذي أنبأ عن وجود شيء فقير ونظيف فيها؛ معطفها الصوفي الأزرق البالي، اللمّاع في بعض أجزائه، طرفه الأيسر خصوصاً، حيث تحمل رزمة الأوراق أثناء خروجها لبيع كُتيّبات "نداء المعركة". إلا أنه، هو على الأقل،

رأى أن تلك الأجزاء المتهرّئة بدت جميلة تحت ضوء المصباح؛ كأنها نوع من بريق خاصّ في القماش لاعمها. لم يتوقّف عن ملاحقتها بعينيه. تمعّن في وجهها الذي كلما أسهبت في الكلام ازداد عرياً، وكأن المرء لم يبصرها إلا لتوه. تتبّع فمها الواهن الذي لاح وكأنه يبتسم عندما تفتحه، لولا أن ما يسفر عنه ليس ابتسامة، إنما هو شيء مطواع وحسن في الشفتين.

وما إن انتهت من شهادتها حتى بدأ جنود الخلاص يصلّون مع الذين لم يهتدوا بعد من الحضور. ركع الجميع أمام المقاعد واستغرقوا في القراءة والابتهال. وتصاعد غناء الجنود الذين عند المنصّة في تلك الأثناء، ليحافظوا على الجوّ الحماسي. جلجلت القيثارة، وتداخلت التأوّهات في القاعة مع الموسيقى. وفي العتمة الجزئية لم يكد آندرز يتمكّن من تمييز أيّ شيء، ما عدا أن الكثير من الناس قد انحنوا قدماً في مقاعدهم، وأنهم هم الذين يئنون.

تعاظم إيقاع الصلاة. تتالت بدون انقطاع. استغرق فيها جميع الذين تمّ تخليصهم، اشتعلوا بها، اكتووا بنارها.. تعالت التضرّعات.. رُحماك أيها المخلص.. اشمل الآثمين بعطفك.. دعوه.. دعوه يأتي إليكم.. آه دعوه يأتي الآن.. الآن.. هذا المساء.. آه عسى أن تُنقذَ

روح شاردة هذا المساء.. آآه.. فلتتل خلاصها قبل أن نفترق اليوم.. وسنمجّد اسمك يا يسوع.. آه يا يسوع.. لا تدع اجتماعنا يذهب هباء.. أوه فلتحلّ علينا الرحمة، ولتُفتح أبواب السماء لتخلّص آثماً هذا المساء!

استرسلوا واسترسلوا. التهبت الغرفة، أصبح جوّها كثيفاً، فوق طاقة الاحتمال.

وقبع آندرز في مكانه ممتقعاً، مكدوداً، محتدم العينين. مارَ صدره وتتابع لُهاثه، وكأنه على وشك أن ينضمّ إليهم ويئنّ معهم، أن يشرع في الصراخ!

شعر أنه أراد فعل ذلك..

تمالك نفسه. أحكم تشبّثه بالمقعد. وإلى الأمام، على مسافة قريبة رأى الضابطة الشابة جاثمة تصلّي مع امرأة أحد العمال. تمكّن من استبانة طرف وجهها، وألفاها مستكينة بهدوء تامّ.

ترى.. ما الذي حال دون أن تنهكها الإثارة كما أنهكته؟!

لمحها تهمس بصوت خافت بينما جثمت هادئة متشابكة اليدين. لم يعرف أكانت تصلّي أم تتحدّث فحسب. لم يستطع سماعها، لكن شفتيها لم تنمّا عن تلفّظهما بأيّ كلمات متوقّدة. وحيث هي في

مكانها، بدا كل شيء فيها بسيطاً ومألوفاً؛ حذاؤها الذي بـــرز مـــن تحت المقعد، طرف تنورتها المتغضّن.. فقط الشريط الأحمر حـــول قبعتها ظهر وكأنه يتأجّج باللهب فوق رأسها.

استمرّ الناس في هذيانهم بدون توقّف. تضرّعوا وصلّوا.. غنّـــوا ورتّلوا. فعلوا ذلك مراراً وتكراراً. صعّدوا زفراتهم على المقـــاعد، غمغموا، تفجّعوا. نضحوا أرواحهم. تشبّعت الغرفة بـــهم.. أحكمـــت وثاقهم.. ضغطهم سقفها المقوّس، وأطبقت عليهم جدرانها.. وقعـــوا في الشرك.. ولا مخرج.

بعد فترة من الوقت، استجاب أحد الشبّان للنداء وتقدّم. تلمّس طريقـــه إلى الضوء مترنّحاً وكأنه يسير في نومه. تهالك عند الحاجز، وأعلن أنه قد خُلّص. في البداية فغر فمه وحملق فيهم بوجه منهك، فـــارغ، خالٍ من التعبير. ثم راح يهذي. وبينما تعاقبت كلماته، هلّلوا وغنّـــوا! جلجلت القيثارة.. وجلجلوا معها.. انبروا يجمعون التبرعـــات، ثـــم عادوا إلى الغناء من جديد.. تأوّهوا.. وتوسّلوا.. وتضرّعوا..

أخيراً.. أخيراً انتهى الأمر. خرج آندرز قبـــل الجميـــع. غـــادر بسرعة. تجاوز الفناء إلى الطريق. رفع ياقته عالياً، وزرع الـــدرب ذهاباً وإياباً بانتظارها!

مرعب ذلك الشعور الذي خالجه؛ تقزّز مطلق وصقيعٌ قارسٌ. نفور من كل ما قد يُفرض عليه بالقوة. شاهد الحضور يخرجون متقاطرين في جماعات؛ عجائز شمطاوات، شابات قبيحات يجررن أرجلهن، صبيان تلكأوا في الجوار يتهكّمون.. جوهان المخبول والشاب الذي خُلّص.

سبّبت له رؤيتهم الاختناق. انسلّ إلى الطرف الآخر حتى لا ينتبه إلى وجوده أحد، واعتراه خجل من وقوفه هناك ينتظر.

عندما أقفر الطريق أقبلت الضابطة ببزّتها الرسمية..

دُهش.. لم يفهم ما الذي رمت إليه من خروجها وهي على ذلك الهندام!

اتجها إلى خارج البلدة، على طول طريق الريف الشرقي، كما اعتادا أن يفعلا. كان الجو آنذاك قد تحسّن، وانقشعت السماء. ولما أشرفا على الريف المفتوح بزغ القمر. حينذاك، بانت معالم وجهها، واستطاع رؤيتها بوضوح.

سأل كيف راودتها فكرة الانضمام إلى جيش الخلاص.

أخبرته أنهم كُثُر في البيت؛ سبعة أبناء هي أكبرهم. اضطرت إلى الرحيل لعدم توافر ما يقيم أودهم كلهم. لكنها عجزت عن العمل لدى

الآخرين، لأنها ليست بذلك الشخص الجلود. وكثيراً ما انهارت تعبـاً ثم أتيح لها أن تُخلَّص، ومنذ ذلك الحين لم تكابد المشقة التي كابدتـها سابقاً..

أوَتُراها آمنت حقّاً؟!

نعم.. آمنت بالتأكيد! فالمسيح قد استخلصها لنفسه. وذاك المساء.. لن تنساه أبداً! نعم، لقد عرفت أنها خُلّصت، ولا شـيء أروع مـن أن يعرف المرء ذلك. ولكن لا ضيْر أيضاً في عثورها على الأمان، في وجود من يعيلها ويزوّدها بقوت يومها. بل إن جيش الخلاص يوفّـر لها الكساء كذلك. وإذا احتاجت هي أو غيرها إلى شيء خاصّ، لـم يتكلّفوا إلا عناء تقديم طلب للحصول عليه. وغالباً ما نالوه. لقد غدت أحوالها أفضل من السابق منذ أن أسلمت أمرهـا للعنايـة الإلهيـة. لكن.. لو خُيّرت، لآثرت البقاء فـي البيـت مـع أمّـها وإخوتـها وأخواتها.. فقط لو وجدت سبيلاً إلـى إعالـة نفسـها وهـي بيـن ظهرانيهم.

أصغى آندرز إليها. لم يستطع استجلاء وجهها الذي أخفتـه قبعتـها بينما مشيا متجاورين يتحدّثان.. لكنه قنع بسماع صوتها.. فهو فـي النهاية صوتها هي.. وتلك حكايتها.. حكاية عجِب من روايتها لـها

ببساطة متناهية وهدوء.. لم يفهم كيف استطاعت فعل ذلك!

انتهت بهما الطريق إلى منخفض البحيرة، فاجتازا خطّ السكّة الضيّق الذي يتتبع الضفّة. وحولهما ترامت المنطقة مقفرة، لأن القطارات لا تطرقها في ذلك الوقت المتأخر، ولا شيء يمكن رؤيته عند تقاطع الخطوط سوى المسار يتلاشى في الاتجاهين. إلا أنهما سمعا قعقعة ترولي يوغل ويوغل في بطن الغابة، يقوده مراقب خطوط في طريقه إلى بيته.

عندما ازدادت الدرب دنواً من البحيرة، وبدأ حذاؤها يغوص في الوحل، اضطرّا إلى تتبع الحفاف المعشوشبة متلاصقيْن. وآنذاك سرى إليه الدفء المنبعث منها، أنعشته أنفاسها، يدها الواهنة في يده..

أ.. أتراه كان يحبّها؟!

بعد برهة، طالعهما رتل طويل من عربات تجرّها خيول منهكة أناخت رؤوسها، ويقبع فيها رجال شبه نيام. تبيّنا أنهم مجموعة من باعة سمك الرنكة. جاءوا من الساحل الذي يبعد زُهاء أحد عشر ميلاً عن البلدة للحاق بسوق الصباح التالي. وجلسوا في العربات يغالبون النعاس، صُرر الطعام ودوارق المشروب تستقرّ أمامهم،

والرنكة وراءهم تومض تحت القمر.

لما بدا لهما أن الوقت تأخّر بهما انعطفا ليعودا. لكنهما توقّفا ولبثا يتأملان البحيرة قليلاً. حينذاك، صفى الجو فجأة. وعليها مباشرة سقط ضوء القمر. وفي تلك اللحظة تبدّلت ملامحها، معالم جسمها كله. عاد إليها الألق مرة أخرى. وكالسابق، غدت المواضع المتهرّئة في عباءتها قطعة من النور؛ النور الذي تدفّق حولها كما لو أنه يروم كشفها.

وقف آندرز وتطلّع إليها كالمُتيّم. بيد أنه لُجِم بذلك النقاء المطلق فيها؛ بشحوبها الذي أضفى على ملامحها صبغة غير أرضية. لكنها صبغة لم يبلغ بها البحرانُ والتحرّقُ الجارف والاغتباطُ مرتبةَ الروحانية، بل فاضت بالسكينة فحسب.

لم يعثر في تلك الملامح على أيّ سمة بهيمية..؟ ولماذا؟

انتابه فجأة شعور بأن هناك شيئاً مستبداً وطاغياً في ذلك النقاء وتلك الطيبة، وفي شلال النور المُنثال عليها. خُيّل إليه أنه سبق له أن رأى تلك الأشياء من قبل.. نعم.. من المؤكد أنه وجد فيها شبهاً من أحد عرفه...فهناك أشخاص بعينهم فيهم شيء فظيع يذكّر المرأ بالكمال.. بالتعطّش إلى تطويق اليقين.. تحقيق السلام المثالي.

وعندما يواجه المرء ذلك الشيء تصبح الحياة أكثر إلحافاً في وحشتها، لأنه يضفي عليها حرارة مباغتة دخيلة عليها، لا تمتلكها، ويجعل الاستمرار فيها صعباً شديد القسوة.

أتُراهما وَقفا هناك طويلاً؟! أما كانا عائدين إلى البيت؟!

أسرعا إلى البلدة. وفي الطريق، تملّكت آندرز رغبة في التملّص منها، أو في أن يشرع في تسفيه ما آمنت به. أراد تمزيق شيء

يعنيها. إلا أنهما تابعا المشي صامتين.

لم يجتمعا بأحد في الدروب التي أقفرت من الناس. أوصلها إلى دكان الحدادة، لأنها تقيم في ملحق خلفي تابع له. وأصابه التقزّز من وقوفه إزاء الجدار الذي شهد طرفه الآخر خوار الناس وعويلهم..

افترقا. مضت إلى الملحق الخرب وكأنها تمضي إلى مسكن يليق بإنسان.

وسارع هو في الانطلاق إلى بيته انطلاقة مخلوق تحرّر من قيد ما.. وعلى ذلك النحو.. انتهت سنوات شبابه الأولى؛ سنوات من التفسّخ البحث، والانحلال، والارتباك...

مكتبة
t.me/t_pdf

بير لاغركفيست أحد كتاب السويد الخالدين. ولد سنة ١٨٩١ في بلدة صغيرة من الإقليم السويدي الجنوبي. قضى شطراً من حياته في الخارج، متنقلاً ما بين الدانمرك وإيطاليا وفرنسا. تأثر بالفن التعبيري الجديد وانعكس هذا على تفكيره وأسلوبه الأدبي، وجعله يتحول من الطبيعية إلى البساطة القوية ونقاوة التعبير. له تقريباً أربعون كتاباً في مجالات متعددة من شعر ومسرحيات ومقالات وقصص. ويعتبر كتاب "القزم" فاتحة شهرته العالمية. ومن كتبه أيضاً "الابتسامة الأبدية"، "باراباس"، "حاجّ في البحر"، و الأرض المقدسة".

أما رواية "ضيف على الواقع" فهي مفتاح القارئ لعالم بير لاغركفيست...

نال بير لاغركفيست جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٥١.

توفي سنة ١٩٧٤.

شدّ لاغركفيست الرحال متجولاً تحت متاهة من الشهب التي جذبت تفكيره، لكنها لم تشبع روحه. فبقي طيلة حياته مسكوناً بالماضي الذي كوّن شخصيته وأعماله.

دار المنى

t.me/t_pdf

t.me/tea_sugar